

العِنَايَةُ الإلْهِيَة
بَيْنَ
الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ
PROVidence
القرآن
تأليف
الدكتور الشيخ
أحمد حجازى السَّقا
الإنجيل
ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الإيمان
بجوار جامعة الأزهر بالمنصورة
مكتبة المهتدين الإسلامية


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

العِنَايةُ الإْلِهيةِ

بَيْنَ
الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ
PROVidence

تأليف

الدكتور الشيخ

أحمد حجازى السَّقا



ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الإيمان

بجوار جامعة الأزهر بالمنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

ملاحظة :

العناية الإلهية **PROVidence**

هى التى تسمى عندنا نحن المسلمين بالقضاء والقدر ، أو الجبر والقُدَر .



طبعة القاهرة

١٤١٢ - ١٩٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، والتابعين لهم بالخير إلى يوم الدين .

أما بعد

فالقضية التى يتحدث عنها هذا الكتاب ، هى قضية القضاء والقدر ، عند المتكلمين ، وهى نفسها قضية العناية الإلهية عند الفلاسفة وأهل الكتاب . وخلاصتها :

(أ) هل الله تعالى كتب فى « اللوح المحفوظ » على الإنسان من قبل ولادته ، كل ما سيحدث له طول حياته ، من عمر ورزق وشقاوة وسعادة ؟ وإذا كان الله تعالى قد كتب ؛ فإن الإنسان طول حياته يُنَفِّذ المكتوب عليه فى اللوح المحفوظ ، وإن كان لا يعلم المكتوب . وعلى هذا يكون الإنسان مسيراً لا مخيراً .

(ب) أم أن الإنسان قد منحه الله : الحرية ، وخلَّى بينه وبين أفعاله ؟ فإذا فعل فعلاً . حسناً كان ذلك الفعل أو قبيحاً ، خيراً كان ذلك الفعل أو شراً . فإن هذا الفعل من الإنسان نفسه ، والله تعالى لم يكتب عليه شيئاً فى اللوح المحفوظ ؟

تلك هى قضية هذا الكتاب .

أما الحنابلة والأشاعرة . فيقولون بالجبر ، ومنهم من صرح به ، ومنهم من لم يصرح به . والماتُريدية أيضاً - أى أهل السنة كلهم -

وأما المعتزلة والشيعة الإمامية ؛ فإنهم يقولون بالاختيار . ومنهم من صرح به ، ومنهم من لم يصرح به . وشيخ الإسلام فخر الدين الرازى فى الجزء التاسع من المطالب العالية من العلم الإلهى . يعرض حجج القائلين بأن الإنسان قد خلقه الله حرا ، ثم يختار بأن الإنسان « مضطر فى صورة مختار » بدليل عقلى . هو : « أن الممكن لابد له من مرجح » أى أن فعل الإنسان ممكن أن يكون ، وممكن أن لا يكون . والله هو الذى يرجح أن يكون ، أو أن لا يكون . مع أن المؤلف يعلم : أنه لا أحد من المسلمين يقول بشريك مع الله .

والقائلون بحرية الإنسان يردون عليه :

أ - بأن المرجح هو الإنسان نفسه . أى إذا استوى عند الإنسان وضعه قيمة

نفعه فى جانب ، ووضعه قيمة ضرره فى جانب ، وترجح لديه جانب النفع ؛ فإنه يميل إلى جانب النفع ، ويترك جانب الضرر .

ب - والإنسان لا يفعل الفعل إلا بقدرة[1] خلقها الله فيه ، وبإرادة منحها الله للإنسان بجوده ورحمته .

وقال شيخ الإسلام : إن الأدلة القرآنية هى أدلة ظنية الدلالة فى هذه القضية ؛ ولذلك يجب الاعتماد على الدلائل العقلية .

أما اليهود . فإن علماء الفَريسيين . وهم من طائفة اليهود العبرانيين . يقولون بالجبر . من بعد سقوط الدولة اليهودية على يد « نبوخذ ناصَّر » سنة ٥٨٦ ق .م وسبب قولهم به : هو أنهم لما حرفوا التوراة فى بابل ، وظهرت للناس خيانتهم لدين الله ، واشتهروا بأكل أموال الناس بالباطل والعبث بحرمات الله ، ولامهم الناس على سوء فعلهم ؛ احتجوا بأن هذا الذى نفعله قد كتبه الله علينا فى الأزل ، من قبل أن نُولد من بطون أمهاتنا . وقد وبخهم عيسى عليه السلام بقوله : « لُعن اللسان الذى قال بهذا ، واليد التى سطرته »

والنصارى أيضاً يقولون بالجبر ، استناداً على كلام لـ « بُولُس » الذى حرف النصرانية . وكوَّنها على ما لم يقل به عيسى عليه السلام .

ونقدم خالص الشكر والاعتراف بالجميل لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمود مصطفى بدوى . على المراجعة والتوجيهات .

والله نسأل أن يوفقنا لخدمة العلم والدين .

د/ أحمد حجازى السقا

أحمد حجازى السقا

---

(١) يقول البيجورى فى شرح جوهرة التوحيد :« ومذهب المعتزلة : هو أن العبد خالق لأفعاله الاختيارية بقدرة خلقها الله فيه . ولقولهم بقدرة خلقها الله فيه ؛ لم يكفروا » [ص ١٢٢ جوهرة التوحيد]

الفصل الأول

فى

العناية الإلهية عند المسلمين

علماء المسلمين منقسمون إلى فرقتين فى شأن القضاء والقدر . والقضاء والقدر عند اليهود وعند النصارى يسمى بـ « العناية الإلهية » PROVIDENCE الفرقة الأولى : هم القائلون بالجبر . أى أن الإنسان مجبور من قِبَل الله تعالى على إيجاد أفعاله . والفرقة الثانية : هم القائلون بالقَدَر . أى أن الإنسان يقدر على إيجاد أفعاله باختياره . وليس غير الفرقتين فى أهل الإسلام والفرقة الأولى هى التى أخذت اسم « أهل السنة » والفرقة الثانية هى التى أخذت اسم « المعتزلة »

والمعتزلة هم جماعة من أهل السنة ، يؤمنون بالقرآن ويأخذون بالأحاديث الصحيحة فى فروع الشريعة ، ويكبّرون الله ويعظمون الشريعة – فمنهم الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى – والفرق بينهم وبين أهل السنة هو : أن السلف منهم يؤمنون بظواهر النصوص فى العقيدة ، ولا يؤولون ما يحتاج إلى تأويل . وأن المعتزلة يؤمنون بظواهر النصوص ويؤولون ما يحتاج إلى تأويل ، لإزالة موهم التناقض . والظاهر والتأويل هو المسمى عند الأصوليين بالمحكم والمتشابه. والتأويل يلزمه إعمال العقل ، لبيان المراد من النصوص . ومثال ذلك : قوله تعالى : ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **ليس كمثله شىء** ﴾ فأهل السنة . ويمثلهم الآن الحنابلة والأشاعرة – على رأى – يقولون : لله يد ، ولكن ليست كأيدينا . أخذاً بظاهر القولين . والمعتزلة قدموا نص القولين أولاً ، ثم أعملوا العقل ثانياً لبيان مراد الله تعالى من القولين . فقالوا :إن اليد أ – إما بمعنى اليد الجارحة ب – وإما بمعنى القدرة . ولو قلنا : إن لله يداً تكون قد مثلناه وشبهناه . فإذاً المراد باليد : القدرة ؛ لأن القدرة هى المناسبة لنفى المثلية . والله عبر عن نفسه كمثل إنسان – وما هو بإنسان – ليقرب ذاته إلى عقولهم .كما قال ﴿ **ومكرنا مكراً** ﴾ وما شابهه . والمراد منه : أنه يحدثهم بلغتهم ليشاكل تفكيره تفكيرهم.وهو لا يمكر.لأن المكر يدل على التغير . والله منزه عنه .

فالمعتزلة نَصيُّون أولاً ، وعقليون ثانياً . ولذلك اعتزلوا العوام ،وعكفوا على قراءة كتب المجوس واليهود والنصارى وغيرهم من أهل الأهواء والبدع . وردوا عليهم مللهم . ونقضوها بالنص وبالعقل . أى أنهم نظروا فى شبهات أعداء الإسلام . وردوها عليهم ودافعوا عن الإسلام بالحجج النقلية العقلية التى لا تقبل الرد . وأثناء ذلك كان فريق أهل السنة يهدى العوام ويرقق قلوبهم بالوعظ والإرشاد ، ويؤلف القصص والحكايات التى تفيد القصاص فى التأديب .

فأهل السنة كانوا هدى ونوراً للناس . **الحنابلة والأشاعرة هدى ونوراً للعوام ، وللعلماء . والمعتزلة هدى ونوراً للعلماء** . وما يزال علماء المسلمين السنيين إلى اليوم على ما كان عليه سلفهم الصالح . بعضهم يؤلف الكتب للعامة ، وبعضهم يؤلف الكتب للخاصة .

ومن تمام البحث أن أذكر بعض ما جاء فى الكتب عن أهل الإعتزال للفائدة :

(أ) سبب تسميتهم المعتزلة :

١ - ظهر فى المسلمين من يقول : إن المسلم الذى يرتكب كبيرة من الكبائر ، ولا يتوب عنها هو كافر . وهم الخوارج . ومن يقول : إن هذا المسلم مع إصراره على الكبيرة ليس بكافر بل هو مسلم . وهم المرجئة فقام « واصل بن عطاء » وقرر : أن المسلم صاحب الكبيرة غير التائب منها . لا يطلق عليه اسم المؤمن ، ولا يطلق عليه اسم الكافر بل يطلق عليه اسم الفاسق . والفرق بين الكافر والفاسق : أن الكافر لا يصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين ، والفاسق يصلى عليه ويدفن فى مقابر المسلمين . كما هو مقرر فى الشريعة . وفى الآخرة ينصب الله الموازين ، ويعطى لكل إنسان حقه . ومن يدخل الجنة لا يخرج منها . وكذلك من يدخل النار .

قال الشهرستانى : « روى أنه دخل واحد على الحسن البصرى . فقال : يا إمام الدين لقد ظهر فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم يخرج بها عن الملة ، وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان . بل العمل عندهم ليس من الإيمان ركنا . ولا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة . فكيف تحكم أنت لنا فى ذلك اعتقاداً ؟ فتفكر الحسن وقبل أن يجيب عن ذلك . قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول : إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا . ولا كافر مطلقاً . بل

هو فى منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر . ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد ، يقرر ما أجاب به جماعة من أصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنا واصل فسمى هو أصحابه معتزلة »

٢ – وقيل : إن القائل هو « قتادة » – وكان من أصحاب الحسن – قال قتادة : « ما يصنع المعتزلة ؟ » فكان تسميتهم بهذا الاسم .

٣ – وقيل : لأن « عمرو بن عبيد » وافق « واصل بن عطاء » فى قوله بفسق المؤمن . واعتزلا معا كل الأقوال المحدثة المخالفة .

٤ – وقيل : إن القائلين بمذهب الجبر هم الذين سموهم بالمعتزلة ، لما اعتزلوا آراءهم فى الجبر .

٥ – ويقول « النوبختى » فى أثناء حديثه عن الجماعة التى بايعت عليا رضى الله عنه : « ثم افترقوا بعد ذلك ، فصاروا ثلاث فرق . فرقة أقامت على ولاية على بن أبى طالب – عليه السلام – وفرقة منهم اعتزلت مع سعد بن مالك – وهو سعد بن أبى وقاص – وعبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن مسلمة الأنصارى وأسامة بن زيد بن حارثة الكلبى مولى رسول الله ﷺ وآله . فإن هؤلاء اعتزلوا عن على عليه السلام وامتنعوا عن محاربته والمحاربة معه بعد دخولهم فى بيعته . فسموا المعتزلة ، وصاروا أسلاف المعتزلة إلى آخر الأبد »

٦ – وأصح الأقوال فى سبب تسميتهم بالمعتزلة : هو أن الذين قعدوا لكتابة الأحاديث النبوية هم الذين أطلقوا عليهم لقب المعتزلة ؛ لرفضهم الاستدلال بها فى العقائد . أى اعتزلونا فلم يرضوا كتابة الأحاديث ، ولم يرضوا الاستدلال بها . ويدل على ذلك : أن الحديث المروى من عدة طرق . وهو من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن سرق وإن زنى . لا يوافق أصل مذهبهم . وهو أن الله ينصب الموازين للذين ماتوا على غير توبة . وكل إنسان على قدر عمله ؛ يأخذ . وانفصال الإمام واصل بن عطاء عن مجلس الإمام الحسن البصرى . كان من أجل هذه المسألة .

(ب) مجمل آراء المعتزلة من كتاب طبقات المعتزلة :

أجمعت المعتزلة على أن للعالم إلها واحدا . أوجده . إلهاً قديماً ، قادراً ، عالماً ، حياً – لا لِمَعانٍ – ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر ، غنياً . لا يدرك بحاسة ، عدلاً ، حكيماً . لا يفعل القبيح ولا يريده . كلف تعريضاً للثواب ، ومكن من

الفعل ، وأزاح العلة . ولابد من الجزاء . وعلى وجوب البعثة حيث حسنت .. وأن آخر الأنبياء محمد ﷺ والقرآن معجزة له . وإن الإيمان قول ومعرفة وعمل . وإن المؤمن من أهل الجنة . وأجمعوا على المنزلة بين المنزلتين . وهو أن الفاسق لا يسمى مؤمناً ولا كافراً – على رأى – وأجمعوا على أن فعل العبد غير مخلوق فيه من قبل الله . وأجمعوا على تولى الصحابة . واختلفوا فى « عثمان » بعد الأحداث التى أحدثها ، فأكثرهم تولاه وتأول له . وأكثرهم على البراءة من معاوية وعمرو بن العاص . وأجمعوا على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وقد ظهرت آراء من بعض المسلمين للتوفيق بين القائلين بالجبر وبين القائلين بالاختيار . وهى آراء لا معنى من ورائها إلاَّ الجبر أو الاختيار . نذكر منها :

أ – الكسب ب – والأمر بين الأمرين .

أ – **فالأشعرى** . قال : بأن قدرة الله القديمة ، تقترن بقدرة الإنسان الحادثة . حال مباشرة الإنسان للفعل . واقتران قدرته ، يدل على اختياره . واختياره للفعل : كسب له يثاب بمقتضاه أو يعاقب . ورأيه لا معنى له إلا الجبر . لأنه إذا اقترنت قدرة الله بقدرة الإنسان . فقدرة الله هى التى ستغلب ، ويقع بها الفعل . وهو نفسه يعرف ذلك.بدليل أنه ذكر فى كتابه « الإبانة عن أصول الديانة » أدلة الجبر للتدليل على الكسب . ومنها الحديث المشهور : « إن أحدكم ليجمع فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم أربعين يوماً علقة ، ثم أربعين يوماً مضغة ، ثم ينفخ الملك فيه الروح ، ويكتب عمره ورزقه وأجله، وشقى أم سعيد » وبدليل أنه قال : إن الله خلق العالم لا لحكمة ، بل لإرادة اقتضت خلقه .

وعلماء الأشاعرة يشرحون الكسب بقولهم : « هو تعلق القدرة الحادثة . وقيل : هو الإرادة الحادثة . فإن الأمور أربعة : إرادة سابقة وقدرة وفعل مقترنان وارتباط بينهما . فعلى تفسير الكسب بهذا الارتباط، وهو تعلق القدرة بالمقدور : ليس مخلوقاً . لأنه من الأمور الاعتبارية . وعلى تفسيره بالإرادة الحادثة يكون مخلوقاً »

وقد عرفوا الكسب بتعريفين :

« **الأول** : إنه ما يقع به المقدور من غير صحة انفراد القادر به ، أى ارتباط وتعلق أو إرادة – على ماسبق من القولين – يقع المقدور ، كالحركة ملتبساً ومصحوباً به ، من غير صحة كون القادر ، وهو العبد ينفرد بذلك المقدور . بل ومن غير صحة المشاركة . إذ لا تأثير منه بوجه ما ، وإنما له مجرد المقارنة ، والخالق الحق منفرد

بعموم التأثير .

الثانى : إنه ما يقع به المقدور فى محل قدرته ، أى ارتباط وتعلق ، أو إرادة – على ما مر من القولين – يقع المقدور ، كالحركة ملتبساً ومصحوباً به ، حال كون هذا المقدور فى محل قدرته كاليد »

ويقول العلماء : « **وبالجملة : فليس للعبد تأثير ما . فهو مجبور باطناً ، مختار ظاهراً ، فإن قيل : إذا كان مجبورا باطناً ، فلا معنى للاختيار الظاهرى ، لأن الله قد علم وقوع الفعل ولابد ، وخلق فى العبد القدرة عليه . أجيب : بأنه تعالى « لا يسأل عما يفعل »** ... اخ »[1]

ب – والشيعة الإمامية قالوا : بأن الله تعالى له مشيئة ، وللإنسان مشيئة . **والفعل يقع بالمشيئة الإنسانية ، التى أقدر الله الإنسان بها . وجعلها من غرائزه . ورأيهم لا معنى له إلا الاختيار** . لأن « الاستطاعة » تسبق الفعل . وبدونها لا يقدر الإنسان على شيء **والدليل على أنهم يقولون بالاختيار** : أن الإمام عليا بن أبى طالب رضى الله عنه . قال فى قوله تعالى ﴿ **يهدى من يشاء ويضل من يشاء** ﴾ : « ليس معناه : أنه أجبرهم على فعل الشر ، أو الخير . لأنه لو أجبرهم على أحدهما ، لم يجب لهم ثواب ولا عليهم عقاب . ولكن المقصود بالهداية : هو التعريف . أى عرف لهم طريق الهدى ، ثم ترك لهم اختيار ما يشاءون » فقولهم بقول الإمام هو دليل على قولهم بالاختيار ثم قولهم : « لا جبر ولا تفويض . بل أمر بين أمرين » – ويعنون بالتفويض

أن الله فوض أعمال الناس إلى حرية منحها لهم – هذا القول منهم هو محاولة للتوفيق بين أهل السنة وبين المعتزلة . ولكنه توفيق لفظى لا معنى له إلا الاختيار ويضربون الأمثال على « أمر بين أمرين » لإيضاح معناه – ولكن لا يتضح – ومن أمثالهم هذا المثل . وهو للإمام « الخوئى »[2] : إنسان أصيبت يده بالشلل ولا يقدر على تحريكها إلا بجهاز كهربائى . ففى حال اتصال الجهاز باليد يقدر على التحريك ، وفى حال الانفصال لا يقدر فالحركة صارت بين أمرين : اليد والجهاز . أى ليست « الحركة » باليد وحدها ، وليست « الحركة » بالجهاز وحده . بل « الحركة » بهما معاً . ومن يتأمل فى هذا المثال يجد أن معناه هو معنى « الكسب » الذى قال الأشعرى به . ويلزم على الأمر بين الأمرين : أنه إذا سرق

---

(١) شرح البيجورى على جوهرة التوحيد ــ طبعة الأزهر ص ١٢٢ ــ ١٢٣

(٢) العدل الإلهى ــ الشيخ محمد حسن آل ياسين ــ طبعة مصر ١٩٨٢م

السارق ، يكون الله معه . السارق بيده ، والله بقدرته وهذا باطل . ولذلك قال الملا صدرا : « إن تحقيق أمر بين أمرين . مما يعجز عن إدراكه عقول كثيرة من العلماء والحكماء ، فضلا عن العوام »[1]

وقد استدل أهل الجبر بأدلة قرآنية على مذهبهم ، واستدل أهل الاختيار بأدلة قرآنية على مذهبهم ، وردَّ بعضهم على بعض . وبالغوا فى الرد . حتى قذف بعضهم بعضاً بالمروق عن الدين .

فالبغدادى فى كتابه « **الفرق بين الفرق** » يقول : « لشيخنا أبى الحسن الأشعرى - رحمه الله - فى تكفير النظَّام ثلاثة كتب»[2] والنظام كما يقول الشيخ محيى الدين عبد الحميد هو أبو إسحق إبراهيم بن يسار ، ابن أخت أبى الهذيل العلاف ، ومنه أخذ الاعتزال ، وهو شيخ أبى عثمان ، عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو معدود من أذكياء المعتزلة وذوى النباهة فيهم ، وتوفى ما بين سنة ٢٢١ وسنة ٢٢٣ هـ .

ويقول البغدادى عن المعتزلة وغيرهم من ا لفرق المخالفة لأهل السنة : « انا نكفرهم كما يكفرون أهل السنة ، ولا تجوز الصلاة عليهم - عندنا - ولا الصلاة خلفهم[3]

والقاضى عبد الجبار بن أحمد - رحمه الله - فى كتابه « شرح الأصول الخمسة » يقول : إن الأشعرى يهذى . وقليل المبالاة بالإسلام والمسلمين . ووقح . ومن عباراته : أنه ذكر قوله تعالى : ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً . أفأنت تكره الناس ، حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ [يونس ٩٩] وعلقَّ عليها بقوله : « لو شاء أن يكرههم على الإيمان ، ويحملهم على ذلك : أمكنه غير أنه أمهلهم ووكلهم إلى اختيارهم »

وهؤلاء الجبرية الذين يقولون لا مشيئة للعبد . وإنما هو ينفذ المكتوب عليه أزلاً « نعارضهم بما فى كتاب الله تعالى . مما يدل على فساد مذهبهم فى هذا الباب . وهو قوله : ﴿ **سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله** ﴾ وحسبك هى دلالة فى هذا الباب

---

(١) كتاب « فلسفات إسلامية » ـــ الأستاذ محمد جواد مغنية

(٢) ص ١٣٣ الفرق ـــ البغدادى

(٣) ص ٣٥٧ الفرق

قال تعالى حاكياً عنهم : ﴿ **سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا . ولا آباؤنا . ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؛ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون** ﴾ [الأنعام ١٤٨]

حكى الله تعالى صريح مذهب هؤلاء القوم من المشركين . ثم كذبهم بقوله : ﴿ **كذلك كذب الذين من قبلهم** ﴾ وقال بعده : ﴿ **حتى ذاقوا بأسنا** ﴾ والبأس هو العذاب . فبين : استحقاقهم من جهة الله تعالى بهذه المقالة . وقال بعد ذلك : ﴿ **هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن** ﴾ منبهاً بذلك : أنهم على الضلالة . ثم قال : ﴿ **إن تتبعون إلا الظن** ﴾ بين : أنهم سلكوا فى ذلك طريقة التقليد والظن . وختم الآية بقوله : ﴿ **وإن أنتم إلا تخرصون** ﴾مقرعاً لهم ، ودالاً على كذبهم . لأن الخرص إنما هو الكذب . قال تعالى : ﴿ **قتل الخراصون** ﴾ [الذاريات ١٠] أى لعن الكذابون . فهذه الآية – على ما ترى – تدل على فساد هذه المقالة من هذه الوجوه كلها .

وما يهذى به « أبو بشر الأشعرى » وغيره . من أن القديم – تعالى – إنما ذم هذه المقالة ، لأنها وردت منهم على طريق الهزء . فعدول عن الظاهر . لأن فى الظاهر ما يمنع من ذلك . لأنه لا يكذب المستهزىء ، ويقول له : هل عندك من علم فيما تقوله ؟ أو يقول له : ان أنت إلا متبع الظن »[1]أهـ .

والحق . أنه ما كان يجب العنف بين المسلمين فى الجدال والمناقشة . فالكلام اللين يصرف الغضب ، وإذا انصرف الغضب ؛ وضحت وجوه الدلالة فى جو الهدوء ، من نصوص الأدلة . وتبين الحق من الباطل . وعندئذ يقبل من يقبل ويرفض من يرفض .

وإذا سألنا أنفسنا اليوم عن المذهب الصحيح.ماهو ؟ أهو مذهب الجبر أم مذهب الاختيار ؟ خاصة وأن حدة الخصومة قد زالت بين أتباع المذهبين – إلا إذا أدخلنا العوام فى النقاش – إذا سألنا أنفسنا . فإن علماء التربية والقضاة والمعلمين الراسخين فى العلم والمستنيرين من العقلاء . سيجيبون بصحة مذهب الاختيار ؛ لأنه ألزم فى تحمل المسئولية من مذهب الجبر . وإن الرؤساء سيجيبون بصحة مذهب الجبر ليمنعوا الشكوى والغضب من سوء الإدارة – إذا حدث – وقد قال الشاعر :

---

(١) ص ٤٧٦ ــ ٤٧٧ شرح الأصول الخمسة

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة ، فلعلة لا يظلم

فعلماء التربية يقولون : إن تربية الإنسان وتعويده على العادات الحسنة لا تتم على الوجه الصحيح إلا إذا أشعرناه بمسئوليته عن أعماله . يقول الدكتور علاء الدين القزوينى : « لما كان الإنسان هو موضوع اهتمام فلاسفة التربية باعتباره موجوداً فى الموجودات المتعددة ، ويحمل فى داخله قدراً كبيراً من الإمكانيات والاستعدادات ، بل ومن المتناقضات . وله أهداف معينة فى هذه الحياة ، لابد من تحقيقها ، لكى تتحقق له إنسانيته ، ولا تكون إلا عن طريق الممارسة والاحتكاك والتفاعل من جانب الإنسان لأخيه الإنسان . وعن طريقها تتحقق غايته الأساسية ، وهى تحقيق ذاته وتأكيد حريته فالإنسان بهذا لا يستطيع تحقيق وجوده إلا بقدر ما يحقق من الإمكانيات ، التى لا تتحقق إلا بحرية الإنسان وقدرته واختياره »[1]

والآن ننتقل إلى « المحكم والمتشابه » فى آيات القرآن الكريم عن القضاء والقدر ، ورأى المعتزلة فى الصفات . لأن الجبر والاختيار تابعان لصفتى العلم والإرادة ، والعلم والإرادة داخلان تحت القدرة .

أولا : المحكم والمتشابه فى آيات القضاء والقدر

القائلون بأن الإنسان حر فى اختيار أفعاله يستدلون بالآيات المحكمة من القرآن الكريم ويردون الآيات المتشابهات من آيات القرآن إلى الآيات المحكمات . ومثال ذلك :

أولا : قوله تعالى : ﴿ **طبع الله على قلوبهم . فهم لا يعلمون** ﴾ [التوبة ٩٣] فهذه الآية متشابهة . لأنها تحتمل معنيين : المعنى الأول : أن الله طبع على قلوب الكافرين ، أى أن الكفر تمكن من قلوبهم – لأن الله خلقه فيهم – فصارت قلوبهم كالمختوم عليها بالشمع أو المطبوع عليها بالطين ، وصاروا بمنزلة من لا يفهم ولا يبصر ولا يسمع . وهذا المعنى يدل على الجبر ، أى أن الله تعالى لما طبع على قلب الكافر ، أجبره على الكفر ومنعه من الايمان . والمعنى الثانى : أن الله طبع على قلوب الكافرين ، بعدما اختار الكافرون الكفر . وإذا لم يكونوا للكفر مختارين ، لم يكن منه سبحانه وتعالى طبع على قلوبهم . ويدل على المعنى الثانى : ما جاء قبل كلمة ﴿ طبع ﴾ وهو قوله تعالى : ﴿ **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف** ﴾ أى أن القادرين على الجهاد والممتنعين عنه رضوا بامتناعهم أن يكونوا مع المنافقين المتخلفين عن

---

(١) الفكر التربوى عند الشيعة الإمامية ص ٩٧ رسالة دكتوراه فى كلية التربية جامعة عين شمس .

الجهاد فى الحكم . ولما رضوا ﴿ طبع الله على قلوبهم ﴾

والذى يدل على أن مراد الله تعالى هو الطبع ، بعد اختيار الكفر : ماورد فى القرآن من آيات محكمات . مثل قوله تعالى : ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ [النساء ١٥٥] فهذه الآية محكمة ، لأنها لا تحتمل إلا معنى واحدا هو أن الله طبع على القلوب بسبب الكفر . فإذا لم يكن كفر ، لم يكن طبع . ولأنها محكمة ، تكون هى الأولى فى إفادة الحكم الذى يريده الله ، وتكون الآيات المتشابهات راجعة إليها . وحيث أن الآية المتشابهة أ – أفادت أن الطبع ابتداء من الله إذا لم نلحظ ﴿ رضوا ﴾

ب – وأفادت أن الطبع بعد الرضا من الإنسان . وحيث أن المعنى الثانى موافق لمعنى الآية المحكمة ، فإن مراد الله تعالى من الآية المتشابهة هو المعنى الثانى[1] .

---

(١) يقول الإمام الزمخشرى فى قوله تعالى :﴿ إن الذين كفروا ، سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾ [البقرة ٦]

« والتعريف فى ﴿ الذين كفروا﴾ يجوز أن يكون :ا – للعهد . وأن يراد به ناس بأعيانهم كأبى لهب وأبى جهل والوليد بن المغيرة ، وأضرابهم ب – وأن يكون للجنس . متناولاً كل من صمم على كفره تصميماً ، لا يرعوى بعده » ا.هـ

والأصح : أن يكون لجنس . لأن القرآن يخبر عن عادات الكافرين وعن طبائعهم فى كل مكان ، وعلى طول الزمان . ويدلك على أن الله تعالى لم يختم على قلوبهم ، إلا بعدما اختاروا الكفر وفضلوه باختياره على الإيمان : قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أى الذين اختاروا طريق الكفر ، إنذارك لهم وعدم إنذارك سواء . لأن العادة إذا تمكنت من إنسان صعب على الإنسان التخلص منها ، وصارت العادة جزءاً من الإنسان ، يصعب عليه التخلى عنها .

« فإن قلت : فلم أسند الختم إلى الله تعالى . وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه . وهو قبيح ، والله يتعالى عن فعل القبيح علواً كبيراً ، لعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنه ، وقد نص على تنزيه ذاته بقوله : ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ – ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ – ﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل ؟

قلت : القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها . وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل . فلينبه على ان هذه الصفة فى فرط تمكنها وثبات قدمها ، كالشىء الخلقى غير العرضى . ألا ترى إلى قولهم : فلان مجبول على كذا ومفطور عليه ، يريدون أنه بليغ فى الثبات عليه » ا.هـ

وكان ينبغى على الإمام الزمخشرى أن يفرق بين الصفة الذاتية والصفة العرضية . لأن الكفر إذا كان ذاتياًبعد تمكنه من الإنسان ، فإنه يستحيل إزالة الكفر ، وبالتالى نرجع إلى القول بالجبر . وقصد هذا الإمام الجليل من قوله هو : أن يبين أن الكافر ، لما استحب الكفر برضاه على الإيمان ورضى به وقنع ، صار قلبه كالمختوم عليه . وأسند الله الختم إلى نفسه ، مع أنه بسبب اختيار الإنسان الكافر ، لئلا يتوهم متوهم أن فى العالم إله غير الله يضاد الله فى الفعل .

– وسيأتى توضيح هذا فى قول النبى عاموس : ان البلايا التى تحدث فى المدن هى من صنع الله وحده .

ويؤكد ذلك : قوله تعالى : ﴿ **كذلك نطبع على قلوب المعتدين** ﴾ [يونس ٧٤] فقد بين تعالى أنه لا يطبع على كل قلب ، بل على قلب المعتدى . وقوله تعالى : ﴿ **كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين** ﴾ [الأعراف ١٠١] فقد بين أنه يطبع على قلب الذى اختار الكفر وفضله على الإيمان . وقوله تعالى : ﴿ **كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾ [غافر ٣٥] فقد بين أنه تعالى يطبع على قلوب المتكبرين المتجبرين ، لا على المتواضعين الخاضعين لله . وقوله تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم آمنوا ، ثم كفروا فطبع على قلوبهم** ﴾ [المنافقون ٣] أى أن الله تعالى طبع على قلب المنافق بعدما كفر ، وقد كان من قبل مؤمنا .

ثانياً قوله تعالى : ﴿ **فإن الله يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء** ﴾ [فاطر ٨] هو قول متشابه يحتمل ١ - أن الله يضل الإنسان إبتداء بحسب مشيئته المطلقة . ٢ - أن الله يضل الإنسان إذا شاء الإنسان لنفسه الضلال . والمعنى الثانى هو مراد الله تعالى . لأنه متفق مع المحكم . والمحكم هو قوله تعالى : ﴿ **يضل به كثيراً ، ويهدى به كثيراً . وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ [البقرة ٢٦] فقد بين أن الله تعالى لا يضل إلّا الفاسق ، الذى اختار الفسق بمشيئته لا بمشيئة الله . وهذه الآية المحكمة لا تحتمل إلّا معنى واحداً . كما هو الظاهر منها

ويؤكد أنها محكمة : قوله تعالى : ﴿ **وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم ، حتى يبين لهم ما يتقون** ﴾ [التوبة ١١٥] فقد بين سبحانه وتعالى أن الإضلال بعد بيانه طرق الهداية ولا يختارونها . وقوله تعالى : ﴿ **ويضل الله الظالمين** ﴾ [إبراهيم ٢٧] بين تعالى أنه يضل الظالم ، ولا يضل العادل . وقوله تعالى : ﴿ **كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب** ﴾ [غافر ٣٤] وقوله تعالى : ﴿ **كذلك يضل الله الكافرين** ﴾ [غافر ٧٤] وقوله تعالى . ﴿ **ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** ﴾ [ص ٢٦] فقد بين أن الهوى - وهو اتباع الشهوات - يضل عن سبيل الله . والهوى من الإنسان .

أ - وأما ما جاء فى سورة الأعراف من أن موسى عليه السلام ، قال لله عز وجل : ﴿ **إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى بها من تشاء . أنت ولينا . فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة . وفى الآخرة إنا هدنا إليك** ﴾ فهذا القول هو اعتقاد موسى ، كما اعتقد جواز رؤية الله تعالى . واعتقاد موسى ، هو اعتقاد له نفسه ، ولذلك لا يكون منه الدليل . لا على مذهب الجبر ولا على مذهب الاختيار . إنما الدليل يكون من ردّ الله تعالى

على موسى . والرد هو : ﴿ **عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء . فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى** ﴾ .. الخ [الأعراف ١٥٥ - ١٥٧] فقول الله تعالى : ﴿ **عذابى أصيب به من أشاء** ﴾ يدل على مطلق المشيئة ، وهو دليل على صحة مذهب الجبر بحسب ظاهر القول . ولكن تقييد الرحمة بأنها مكتوبة للمتقين ، يدل على أن مشيئة العذاب ليست مطلقة ، بل هى مقيدة بأنها مكتوبة للكافرين ، قياساً للعذاب على الرحمة . ويؤيد هذا قراءة من قرأ : ﴿ **عذابى أصيب به من أساء** ﴾ من الإساءة لا من المشيئة . وهى قراءة الحسن ، وعمرو الأسوارى . فإن قيل : هذا تقييد لإرادة الله ومشيئته قيل : هذا ما أخبر الله به عن نفسه[1] .

وفى تفسير مجمع البيان : « قال الله تعالى مجيباً لموسى عليه السلام ﴿ **عذابى : أصيب به من أشاء** ﴾ ممن عصانى واستحقه بعصيانه ، وإنما علقه بالمشيئة لجوازه الغفران فى العقل »

ب - وأما ماجاء فى سورة الإنسان وهو قوله تعالى : ﴿ **إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً . وما تشاءون إلا أن يشاء الله . إن الله كان عليما حكيما** ﴾ [الإنسان ٢٩ - ٣١] فإن ﴿ **فمن شاء اتخذ** ﴾ يدل على مذهب الإختيار . و﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾يدل على مذهب الجبر . فكيف يكون التوفيق بين الآيتين ؟

يريد الله أن يقول : إنى ذكرتكم بى على لسان النبى . وبعد الذكرى أنتم أحرار فى أن تؤمنوا وفى أن تكفروا . ولو أن إنساناً شاء أن يؤمن بى ويعبدنى . فإنه لن يحقق مشيئته إلا إذا تفضلت عليه بإرسال النبى الذى يدل على ، ويبلغ كيف تكون العبادة.وبعبارة أخرى : ما تشاءون عبادتى إن شئتموها إلا أن أشاء وأبلغكم بها .

---

(١) الكتب التى وصلت « الأندلس » لابن حزم عن المعتزلة ، لم توضح له كل كلامهم عن مذهبهم . والعلماء الذين جاءوا من بعده وضحوا المذهب . والدليل على نقص علمه : قوله : « وأما القائلون بالأصلح من المعتزلة . فإنهم انقطعوا ههنا . وقالوا : « لا ندرى ما معنى الإضلال ، ولا معنى الختم على قلوبهم ، ولا الطبع عليها » وقال بعضهم : « معنى ذلك : أن الله تعالى سماهم ضالين ، وحكم أنهم ضالون » وقال بعضهم : « معنى أضلهم : أتلفهم ، كما تقول : ضللت بعيرى » وهذه كلها دعاوى بلا برهان . ولم نجد لهم تأويلاً أصلاً فى قول الله عز وجل حكاية عن موسى عليه السلام أنه قال : « إن هى إلا فتنتك . تضل بها من تشاء » [ج ٣ ص ٤٩ الفصل]

أى أن الناس لا يعرفون الله حق معرفته إن أرادوا المعرفة ، إلا إذا أراد الله أن يعرفهم بنفسه تعريفاً صحيحاً . ويؤيد هذا الإختيار ما جاء بعد ذلك وهو : ﴿ **يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً** ﴾ أى من يشاء أن يرحم نفسه من عذاب الله ، أدخله الله فى رحمته ، ومن شاء لنفسه ظلماً ، أعد الله له العذاب الأليم .

ت - ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون . إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾ [التكوير ٢٨ - ٢٩] يقول ابن حزم الأندلسى : « نص - تعالى - على أن لنا مشيئة . إلا أنها لا تكون منا ، إلا أن يشاء الله كونها»[1] وكونها: هو التذكير بمعرفته وشرائعه ، ومن الممكن أن يكون قول : ﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾ : إثبات لكامل القدرة ، لئلا يتوهم متوهم أن لغيره قدرة تعجز قدرة الله .

(١) وقد بين ابن حزم أن قوله تعالى للمنافقين : ﴿ **اقعدوا مع القاعدين** ﴾ أمر تكوين ، لا أمر بالقعود . وهو صحيح . لأنهم اختاروا القعود عن الجهاد ، وحلفوا بالله - حال كونهم كاذبين - وقالوا : ﴿ **لو استطعنا لخرجنا معكم** ﴾ فلأنهم رضوا بالقعود ، قال الله تعالى ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم . فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾ [التوبة ٤٦] أى أنه لم يثبطهم إلا بعد اختيارهم التخلف عن الجهاد .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **والله خلقكم . وما تعملون** ﴾ [الصافات ٩٦] قول متشابه . لأنه يحتمل معنيين :

الأول أن الله خلقهم وخلق عملهم.أى وخلق الخشب والحجارة التى تنحتون منها الأصنام والثانى : أن قوله ﴿ **وما تعملون** ﴾ ليس معطوفا على ﴿ **والله خلقكم** ﴾ حتى يأخذ ما يعملون منه حكم الخلق . بل ﴿ **وما تعملون** ﴾ جملة مستقلة تفسرها الآية السابقة عليها . أى أن إبراهيم عليه السلام يقول لقومه موبخاً لهم على عبادتهم الأصنام : ﴿ **أتعبدون ما تنحتون ؟** ﴾

---

(١) وقد بين ابن حزم أن قوله تعالى للمنافقين : ﴿ اقعدوا مع القاعدين ﴾ أمر تكوين ، لا أمر بالقعود . وهو صحيح . لأنهم اختاروا القعود عن الجهاد ، وحلفوا بالله - حالة كونهم كاذبين - وقالوا : ﴿ لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ فلأنهم رضوا بالقعود ، قال الله تعالى : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم . فثبطهم . وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ [التوبة ٤٦] أى أنه لم يثبطهم إلا بعد اختيارهم التخلف عن الجهاد .

أى لا يصح لكم ذلك . والحال أن الخالق لكم هو الله تعالى . ثم وبخهم بقوله ﴿ وما تعملون ؟ ﴾ أى ما هذا الباطل الذى تعملونه ؟ أتنحتون حجراً وتعبدونه ؟ ما هذا من شأن العقلاء . فهو استفهام معناه الإنكار والتوبيخ . وقد قلنا : إنه إذا كان المراد أن الله خلقهم وخلق عملهم . فخلق العمل معناه: خلق المادة التى عملوا منها الأصنام . أى أن الله خلق الحجر ، والخشب. وهم الذين نحتوا الحجر والخشب فعملهم هو النحت ، والخالق لهم وللمادة: هو الله تعالى ولو كان المعنى : والله خلقكم وخلق عبادتكم ، لكانت الآية إلى أن تكون عذراً لهم ، أقرب من أن تكون لوماً وتهجينا ، ولكان لهم أن يقولوا : ولم توبخنا على عبادتنا ، وأنت هو الفاعل لذلك ؟ فتكون الحجة لهم لا عليهم . ولأنه قد أضاف العمل إليهم بقوله ﴿ تعملون ﴾ فكيف يكون مضافاً إلى الله تعالى ؟

والآية متشابهة بحسب الظاهر . والمحكم هو الذى يبين المراد منها . والمحكم هنا هو قوله تعالى : ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً ، وتخلقون إفكاً ﴾ [العنكبوت ١٧] فقد بين تعالى : أنهم هم الخالقون للإفك ، أى المنشئون للكذب . أى تفتعلون كذباً بأن تسموا هذه الأوثان : آلهة . أو تصنعون أصناماً بأيديكم ، وسماها ﴿ إفكاً ﴾ لادعائهم أنها آلهة وعلى هذا المعنى الواحد للمحكم ، يكون مراد الله من المتشابه فى قوله · ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ هو أن كل ما فى الكون من خلقه . والناس هم الذين يحولون الخير إلى الشر

والمعتزلة يقولون : إن الإنسان خالق فعله ، ليس لأنه مستقل بالخلق وقادر عليه كما هو شأن الآلهة . بل على معنى أن الله تعالى سمى فعل الإنسان خلقاً فى قوله : ﴿ وتخلقون إفكاً ﴾ أى تنشئون أفعالكم باختياركم ، ومن أنشأ فعلاً لم يكن قبل الإنشاء حاصلاً ؛ عدّ خالقاً له على سبيل المجاز فالخالق على الحقيقة هو الله عز وجل .

ويؤكد أن آية ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً . وتخلقون : إفكاً ﴾ محكمة : قوله تعالى عن طائفة من علماء بنى إسرائيل . ﴿ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب – وما هو من الكتاب – ويقولون : هو من عند الله – وما هو من عند الله – ويقولون على الله الكذب . وهم يعلمون ﴾ [آل عمران ٧٨] فقد بين أن قولهم الكذب ليس من عند الله . بل هو من عند أنفسهم . فلو كان الله هو الخالق لكل أعمال الناس . أعمال المؤمنين وأعمال الكافرين ، لكان خالقاً للكذب ، الذى نطق

به هؤلاء العلماء . حيث أنه سبحانه وتعالى نفى عن نفسه أنه خالق لكذبهم بقوله : ﴿ وما هو من عند الله ﴾ إذًا تكون أعمال الناس بمحض إرادتهم واختيارهم .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ كل من عند الله ﴾ [النساء ٧٨] قول متشابه : ١ - يحتمل أن الشر الذى يصيب الإنسان ، وكذلك الخير من عند الله . ٢ - ويحتمل أن الأسباب التى أدت إلى الشر أو إلى الخير من خلق الله ، والإنسان هو الذى استعمل الأسباب ناحية الشر أو ناحية الخير . ونوضح معنى الأسباب : فنقول إن الله تعالى خلق كل شىء . ومما خلقه « الماء » فالماء من عند الله ، أى من خلقه ، ثم إن الله أجراه فى الأرض لينتفع الناس به وتنتفع الحيوانات . فمن أخذ من النهر ماء وشربه فقد حصل له خير بسبب الشرب ، وفى هذه الحالة نقول : الخير من عند الله ، لأن مصدر الخير وهو الماء من عند الله . ومن أخذ من النهر ماء وأتلف به إنساناً بالغرق ونحوه ، فقد أحدث شراً ، وفى هذه الحالة نقول : الشر من عند الله ، لأن مصدر الشر وهو الماء من عند الله . وإن كان السبب المباشر هو الإنسان . والمعنى الثانى هو المراد لله تعالى . لأن المحكم وهو قوله تعالى : ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [البقرة ٥٧] يدل على معنى واحد ، وهو أن الظلم - الذى هو شر - من الناس وليس من الله . بمعنى : أنهم استعملوا المواد التى خلقها الله فى الشر ولم يستعملوها فى الخير . ويؤكد هذا المعنى : ما جاء فى الآية وهو : ﴿ **وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كل من عند الله** ﴾ أى أن الله خلق الناس وخلق النعم والخيرات من المطعم والمشرب وما شابه ذلك . وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة . فإذا أصاب الناس خير ، فهذا بحسب الأصل فى خلق الإنسان والكون ، ينسبونه إلى الله . لأن الأصل هو خلق الناس للتنعم . وإذا أصابهم شر يقولون : هذا الشر عارض فى الحياة وطارىء . وليس هو بأصلى فيها . ثم يبحثون عن سبب تغير النعمة وتحولها إلى نقمة . هل هو اتباع محمد عليه السلام ؟ يجوز . فبسببه نقم علينا الكفار من بنى جنسنا ولم يعاملونا بالتجارة فافتقرنا . والقائلون هم اليهود لأن اليهود يعتقدون : « أن كل شىء حادث ، فلابد له من سبب قريب أحدثه . ولذلك السبب : سبب . وهكذا إلى أن ينتهى ذلك للسبب الأول لكل شىء.أعنى : مشيئة الله واختياره . ولذلك قد تحذف فى أقاويل الأنبياء تلك الأسباب المتوسطة كلها ، وينسب هذا الفعل الشخصى

الحادث لله ، ويقال : إنه تعالى فَعَلَهُ »[1] ومن أجل اعتقادهم قالوا لما أصابهم قحط وجدب : هذا من شؤم محمد كما حكى عن قوم موسى : ﴿ وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ، ومن معه ﴾ [الأعراف ١٣١]

خامساً : قوله تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم ، إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ [الحديد ٢٢] قول متشابه يحتمل ١ – أن المصائب مقدرة فى « اللوح المحفوظ » على الناس من قبل أن يخلقهم الله تعالى ، وعلى هذا القول يكون الإنسان مجبرا على الإتيان بأفعاله ، ولا خيرة له ولا إختيار ٢ – أن المراد بالمصائب ما يحدث بسبب تكوين الأرض والإنسان . على حد قول الملائكة لله تعالى : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ؟ ﴾ [البقرة ٣٠] أى تكوين الله للأرض من زرع وماء ولعب ولهو وزينة وتفاخر وغير ذلك.وتكوين الله للإنسان من ميل إلى الطعام وإلى الشراب وحب للتملك والسيطرة والإقتناء ، وميل إلى النساء وغير ذلك . هذا التكوين يؤدى إلى الإفساد فى الأرض وسفك الدماء فإذا حدثت مضيبة فى الأرض مثل قحط المطر وقلة النبات ونقص الثمرات ، أو حدثت مصيبة فى الناس مثل الأمراض والثكل بالأولاد . فمرد ذلك إلى المادة الأولى التى كون الله بها الأرض وكون بها الإنسان . وهذه المادة هى التى أدت إلى المصائب للجهل الذى هو عدم العلم . وعلى سبيل المثال : نقرأ أن الله تعالى خلق آدم وخلق ولديه هابيل وقابيل ، وأجرى عليهم الأرزاق . وبسبب الطمع وعدم الرضا بما قسم الله ، تعدى قابيل على هابيل وسفك دمه

وقد أورد القرطبى المفسر رحمه الله معنى ثالثا وهو أن الآية للتسلية وليست على الحقيقة وكلامه ليس بصحيح ، لأن الآية خبر

أ – يقول القرطبى فى تفسيره : « وقال ابن عباس : لما خلق الله القلم . قال له : اكتب . فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة »

ب – ويقول القرطبى : « وقد قيل : إن هذه الآية تتصل بما قبل ، وهو أن الله سبحانه هون عليهم ما يصيبهم فى الجهاد من قتل وجرح ، وبين أن ما يخلفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران ، فالكل مكتوب مقدر ، لا مدفع له ، وإنما على المرء امتثال الأمر »

وإذا كانت الآية كما ترى تحتمل المعنيين . فأى المعنيين مراد لله تعالى ؟ إن

---

(١) ص ٤٥٦ دلالة الحائرين لموسى بن ميمون – تحقيق الدكتور/حسين آتاى .

مراد الله تعالى هو المعنى الثانى.. لأن المحكم وهو قوله تعالى : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ [الشورى ٣٠] لا يحتمل إلا معنى واحداً . وهو أن الشر من الناس ، وليس مقدراً عليهم من قبل ولادتهم .

والقائلون بأن الإنسان حر فى اختيار أفعاله يستدلون أيضا بأدلة مأثورة عن السلف الصالح . ومن أدلتهم ما يلى

١ – قال شيخ لعلى بن أبى طالب : إن القضاء والقدر ساقانا إلى الحرب . فقال على رضى الله عنه : « لعلك تظن قضاء واجباً ، وقدرا حتماً . ولو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد ، ولما كانت تأتى من الله لائمة لمذنب ، ولا محمدة لمحسن . ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسىء ، ولا المسىء بعقوبة الذنب أولى من المحسن تلك مقالة إخوان الشياطين وعبدة الأوثان وخصماء الرحمن وشهود الزور ، وأهل العمى عن الصواب فى الأمور . هم قدرية هذه الأمة ومجوسها

إن الله تعالى أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، ولم يكلف مجبرا ، ولا بعث الأنبياء عبثاً ».

٢ – سئل أبو بكر الصديق عن الكلالة . وسئل عبد الله بن مسعود عن المرأة المفوضة فى مهرها . فقال كل واحد منهما حين سئل : « أقول فيها برأيى . فإن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان » فقول كل واحد منهما يصرح بأن الرأى منسوب إلى الإنسان ،وليس منسوباً إلى الله وهذا يدل على أن الله تعالى منح الحرية للإنسان ليفعل أى فعل باختياره . وعلى أن الله تعالى لم يجبر الإنسان على أى فعل

٣ – وتعزير عمر بن الخطاب لمن ادعى أن سرقته كانت بقضاء الله ، مصرح بنفى الجبر ، لأنه أتى بسارق . فقال : « لم سرقت ؟ فقال : قضى الله على . فأمر به ، فقطعت يده وضرب أسواطاً . فقيل له فى ذلك ، فقال : « القطع للسرقة ، والجلد لما كذب على الله ».

٤ – ولما قال محاصرو عثمان ، حين رموه : الله يرميك . قال : « كذبتم لو رمانى ما أخطأنى » وهذا أيضا يقتضى إنكاره الجبر .

٥ – وقول عبد الله بن عمر ، حين قال له بعض الناس : يا أبا عبد الرحمن . إن أقواماً يزنون ويشربون الخمر ويسرقون ويقتلون النفس ويقولون : كان فى علم

الله ، فلم نجد بداً منه . فغضب . ثم قال : سبحان الله العظيم . قد كان ذلك فى علمه أنهم يفعلونها ، ولم يحملهم علم الله على فعلها .

حدثنى أبى عمر بن الخطاب ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : مثل علم الله فيكم ، كمثل السماء التى أظلتكم ، والأرض التى أقلتكم . فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض على الذنوب ، كذلك لا يحملكم علم الله عليها

ثم قال ابن عمر : لعبد يعمل المعصية ، ثم يقر بذنبه على نفسه ، أحب إلىّ من عبد يصوم النهار ويقوم الليل ، ويقول : إن الله تعالى يفعل الخطيئة فيه

وهذا الخبر مصرح أيضاً بإنكار القول بالجبر

٦ – روى مجاهد عن ابن عباس أنه كتب إلى قراء المجبرة بالشام :

« أما بعد

أتأمرون الناس بالتقوى ، وبكم ضل المتقون. وتنهون الناس عن المعاصى ، وبكم ظهر العاصون . يا أبناء سلف المقاتلين ، وأعوان الظالمين ، وخزان مساجد الفاسقين ، وعمار سلف الشياطين . هل منكم إلا مفتر على الله يحمل اجرامه عليه وينسبها علانية إليه »

٧ – وعن على بن عبد الله بن عباس قال : كنت جالساً عند أبى. إذ جاء رجل، فقال يا ابن العباس إن ههنا قوماً يزعمون أنهم أتوا من قبل الله ، وأن الله أجبرهم على المعاصى . فقال : لو أعلم أن منهم ههنا أحداً ، لقبضت على حلقه فعصرته حتى تذهب روحه . لا تقولوا : أجبر الله على المعاصى ، ولا تقولوا لم يعلم الله ما العباد عاملوه ، فتجهلوه .

٨ – وعن أنس : ما هلكت أمة قط ، حتى يكون الجبر قولهم .

٩ – وعن أبى بن كعب : « السعيد من سعد بعمله ، والشقى من شقى بعمله »

١٠ – وعن الحسن : أن رجلاً من فارس ، جاء إلى النبى ﷺ وقال : رأيتهم ينكحون أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم . فإذا قيل : لم تفعلون ذلك ؟ قالوا : قضاء الله وقدره فقال ﷺ : « أما أنه سيكون فى أمتى قوم يقولون مثل ذلك . أولئك مجوس أمتى » .

١١ – وسئل ﷺ عن تفسير « سبحان الله » فقال : « هو تنزيه من كل شر »

١٢ – وكان ﷺ يقول فى بعض توجهاته فى الصلاة : « **والشر ليس إليك** »

١٣ – قال الحسن بن أبى الحسن البصرى : إن أهل الجهل قالوا : ﴿ **إن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء** ﴾ [فاطر ٨] ولو نظروا إلى ما قبل الآية وبعدها ، لتبين لهم : أن الله تعالى لا يضل إلا بتقدم الفسق والكفر ، لقوله تعالى : ﴿ **ويضل الله الظالمين** ﴾ [إبراهيم ٢٧] أى يحكم بضلالهم . وقال : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** ﴾ [الصف ٥] وقال : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ [البقرة ٢٦][1]

ثانيا : رأى المعتزلة فى صفات الله تعالى

والقائلون بأن الإنسان حر فى إختيار أفعاله – وهم أهل الاعتزال ، وأهل التشيع – يقولون بأن الله عالم بما كان وبما يكون ؛ **علم انكشاف ، لا علم تأثير** .

فهم فى كتبهم يثبتون لله كل صفة تليق بذاته المقدسة : يثبتون له الوجود والقدم والبقاء والقيام بالنفس والوحدانية . والقدرة والإرادة والعلم والحياة والكلام والسمع والبصر . كما أثبت الفريق المناظر لهم من أهل السنة . والفرق بينهم وبين أهل السنة فى الصفات : هو أن السلف من أهل السنة يدَّعون أن صفات الأعضاء ثابتة لله بلا كيف . يدعون أن لله يدا ولكن ليست كالأيادى . وأن الخلف من أهل السنة يقولون : إن الله ليس جسماً . وما ورد فى القرآن والأخبار من العبارات التى توهم الجسمية ، يؤول بمعنى يبعده عن الجسمية . فيؤولون اليد بالقدرة ، والسمع بالعلم ، والبصر بالإحاطة . وهكذا . وأثر عن « الأشعرى » أ – إثبات صفات الأعضاء مع نفى التمثيل . ب – وتأويلها – كما حكى عنه الشهرستانى –

والذين أثبتوا صفات الأعضاء مع نفى التشبيه ، أطلقوا على منكرى الجسمية لله تعالى : لقب « منكرى الصفات » أى منكرى صفات الأعضاء . والعوام إذا سمعوا لقب « منكرى الصفات » يتبادر إلى ذهنهم إنكار الصفات مطلقاً ، فيصفون المعتزلة والخلف من أهل السنة والشيعة والراسخون فى العلم بالمروق عن الدين . ومن يقرأ تفسير الكشاف للإمام الزمخشرى – رحمه الله – يجد فيه ما قلنا . وكيف ينكرون القدرة – على سبيل المثال – وهم يقرأون فى القرآن ﴿ **إن الله على كل شيء قدير** ﴾ ؟ ومن يقرأ « شرح الأصول الخمسة » و « المغنى » و « المجموع

---

(١) انظر : طبقات المعتزلة

فى المحيط » و « طبقات المعتزلة » يجد فى هذه الكتب – وغيرها – ما قلنا. ويجد أن الدلائل العقلية على إثبات الصفات لله ، هى نفسها دلائل السلف من أهل السنة .

وهذه عبارات من شرح الأصول الخمسة فى الصفات : يقول القاضى عبد الجبار بن أحمد – رحمه الله –

١ – « اعلم : أن أول ما يعرف استدلالاً من صفات القديم جل وعز . إنما هو كونه قادراً ، وما عداه من الصفات يترتب عليه » – « وتحرير الدلالة على ذلك : هو أنه تعالى قد صح منه الفعل ، وصحة الفعل تدل على كونه قادراً »

٢ – « وتحرير الدلالة على ذلك – أى أن الله تعالى حى – هو ما قد ثبت أن الله تعالى عالم قادر ، والعالم القادر لا يكون إلا حياً »

٤ – وفى صفتى السمع والبصر . عن البصريين : أن الله تعالى سميع بصير أى مدرك للمدركات ، وأن كونه مدركاً صفة زائدة على كونه حياً . وعند البغداديين : أن الله تعالى سميع بصير ، أى مدرك للمدركات . وأن كونه مدركاً معناه : عالم . فعند البصريين أنهما بمعنى : **الإدراك**[1] . وعند البغداديين أنهما بمعنى : **العلم** . ويقول القاضى : « أما الذى يدل على أن الله تعالى سميع بصير مدرك للمدركات : هو أنه حى ، لا آفة به ، والموانع المعقولة مرتفعة ، فيجب أن يدرك المدركات »

٥ – وفى صفة الوجود . يقول البغداديون : إن الموجود هو الكائن الثابت . ويقول القاضى : « وتحرير الدلالة على ذلك : أنه عالم قادر. والعالم القادر لا يكون إلا موجودا »

٦ – وفى صفة القِدم . يقولون : القديم : هو ما لا أول لوجوده . ويقول القاضى : « وتحرير الدلالة على ذلك : هو أنه تعالى لو لم يكن قديماً ، لكان محدثاً .. فلو كان القديم تعالى محدثاً ، لاحتاج إلى محدِث . وذلك المحدث أما أن يكون قديماً أو محدثاً . فإن كان محدَثاً ، كان الكلام فى حدثه ، كالكلام فيه . فإما أن ينتهى إلى صانع قديم ، على ما نقوله ، أو يتسلسل إلى ما لا نهاية .. الخ »

وبعد ما ذكر القاضى ما قدمنا خلاصته . عقد فصلاً بيَّن فيه كيفية

---

(١) الباقلانى والجوينى أثبتا صفة الإدراك بدليل عقلى .. وقال كثيرون من الأشاعرة : ليس لله صفة تسمى الإدراك . واستدلوا على ذلك : استحالة الملزوم وهو اتصافه تعالى بها .

استحقاق الله لهذه الصفات . قال فيه : ١ – عند شيخنا أبى على : أنه يستحق القدرة والعلم والحياة والوجود[1] . **يستحقها لذاته** . كما قال أبو الهذيل : إنه تعالى عالم بعلم هو هو . أى العلم كامن فى الذات . وليس زائداً على الذات . ٢ – وعند شيخنا أبى هاشم : يستحقها لما هو عليه فى ذاته .

ونقول : لأنه يقول بالأحوال . ومعنى الأحوال : أ – أنه يثبت القدرة أولاً فى كل حال لله تعالى . ب – ثم لا يثبت أى صفة غير القدرة إلا فى حال ظهور آثار تدل عليها ، ويثبت القدرة أيضاً فى حال ظهور آثار تدل عليها ومثال ذلك – للإيضاح – لو قلنا « جاء زيد راكباً » كانت صفة الركوب : حالاً . وعند زيد قبل الركوب ؛ القدرة على الركوب. لكن لم يوصف بالقدرة على الركوب إلا حال كونه راكباً . وعلى قاعدة قياس الغائب على الشاهد : فإن كلام الله صفة استحقها لما هو عليه فى ذاته حال الكلام . وإن كان قبل الكلام موصوفا بالقدرة . وهكذا . ولذلك قال القاضى فى أول حديثه عن الصفات : « اعلم : أن أول ما يعرف استدلالاً من صفات القديم جل وعز : إنما هو كونه قادراً ، وما عداه من الصفات يترتب عليه» ٣ – وعند سليمان بن جرير وغيره من الصفاتية : أنه يستحق هذه الصفات لمعان ، لا توصف بالوجود ولا بالعدم ، ولا بالحدوث ولا بالقدم . ٤ – وعند هشام بن الحكم : أنه تعالى عالم **بعلم محدث** . ٥ – وعند الكلابية : أنه تعالى يستحق هذه الصفات لمعان أزلية قديمة . ٦ – « ثم نبغ الأشعري . وأطلق القول بأنه تعالى يستحق هذه الصفات ، لمعان قديمة . لوقاحته ، وقلة مبالاته بالإسلام والمسلمين » .

ويستدل القاضى – بعد شتمه الأشعرى ، وبعد رده عليه – على أن الله يستحق الصفات لذاته . بقوله تعالى : ﴿ **وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ ويقول : « ووجه الإستدلال : أنه تعالى لو كان ذا علم – على ما ذكرتموه – لوجب أن يكون فوقه من هو أعلم منه . لأن العليم إنما يستعمل فى مبالغة العالم . وذلك محال ، فليس إلا أن يستحيل أنه تعالى عالم بعلم ، فيجب أن يكون عالماً لذاته ، قادراً لذاته : على ما نقوله » ولو قال قائل : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ يدل على انفصال العلم عن الذات . فقوله : ﴿ أنزله الذى يعلم السر ﴾ لا يدل .

ثم تكلم القاضى عما يجب أن ينفى عن الله . فقال :

١ – « نبدأ من ذلك بكونه غنياً ، لأن الغرض به نفى الحاجة عن القديم تعالى »

(١) لاحظ : أنه استبعد السمع والبصر ، لدخولهما تحت : العلم

٢ - « ومما يجب نفيه عن الله كونه جسما »

وذكر آيات قرآنية تمسك بها السلف على إثبات صفات الأعضاء ، وأولها تأويلا حسنا . من ذلك قوله : « وقد تعلقوا أيضا بقوله تعالى : ﴿ **والسموات مطويات بيمينه** ﴾ قالوا : وذو اليمين لا يكون إلا جسماً . وجوابنا : أن اليمين بمعنى القوة . وهذا كثير ظاهر فى اللغة . وعلى هذا قال الشاعر :

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى العلياء ، منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

٣ - ولما بين - رحمه الله - الكلام فى أنه تعالى لا يجوز أن يكون جسماً ، بين استحالة كونه عرضاً . والعرض هو الصفات التى تعرض فى الوجود ، وتزول .

٤ - « ومما يجب نفيه عن الله تعالى : الرؤية ، لقوله تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾

٥ - ونفى الثانى « الغرض به : الكلام فى أن الله تعالى واحد ، لا ثانى له يشاركه فيما يستحقه من الصفات ، نفياً وإثباتاً ، على الحد الذى يستحقه »

ومن هذا الذى ذكرناه من كتب المعتزلة عن صفات الله تعالى . يتبين أن خصومهم بالغوا فى عداوتهم لدرجة أن قالوا : إن المعتزلة ينفون الصفات . وكان يجب عليهم أن يذكروا العبارة هكذا : « المعتزلة ينفون صفات الأعضاء عن الله عز وجل ، لأنهم ينفون الجسمية عن الله عز وجل »

والآن ننتقل إلى صفة العلم . ونبين كلامهم فيه ، بالنسبة لحرية الإنسان واختياره لأفعاله . يقولون : من المعلوم للناس : أن طبائع الأشياء ثابتة . لأن الله خلقها على سنن لا تتغير ولا تتبدل . فالماء إذا نزل على الأرض ، أحياها . والهواء إذا انقطع عن قوم أماتهم . وفى أيام كذا يحدث البرد ، وفى أيام كذا يحدث الحر . وهذه السنن يعلمها الناس بالمشاهدة . والإنسان له غرائز كامنة فى جسده . كغريزة الجوع والتملك ، والميل إلى النساء والتدين . وطبيعة الإنسان كطبيعة كل موجود فى الكون ، لا تتغير ولا تتبدل . فإذا اختلى إنسان بطعام شهى أكله ، وإذا خاف من ربه عبده ، وإذا صادف حمامة أكلها وإذا صادفه هو أسد أكله . والله أمضى الكون بما فيه على سننه ونظمه . ولا يغير السنن والنظم إلا فى القليل النادر ، لهدف من التغير . وعلى سبيل المثال : غير طبيعة البحر من ماء إلى أرض ، لعبور

موسى وبنى إسرائيل . ولما علم الناس أن سنة الطبيعة تغيرت ، علموا أن إله بنى إسرائيل هو الذى غيرها ، فآمنوا بوجوده . وهذا هو الهدف من التغيير . ومن أجل هذا المعنى يقول العلماء : إن المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى النبوة ، تصديقاً له فى دعواه . ولو كان نظام العالم غير ثابت ، ما كان يكون ضرب البحر معجزة . وإعطاء مريم رضى الله عنها من النخلة اليابسة رطباً جنياً . وهذا خرق لنظام العالم الثابت . فإن نظام العالم قائم على أن من يعمل يأكل ، ومن يتكاسل يفتقر . وأنقذ يونس عليه السلام من بطن الحوت . والنظام الثابت : أن يونس يموت . وعلى هذا : فإن العناية الإلهية تتدخل فى بعض الأمور . كأن يسمع دعاء مظلوم وينقذه ، وأن ينجى من الغرق من يدعوه مضطراً وأن يطعم جائعاً كاد أن يهلك ، ويكشف عنه السوء . وهذه العناية – لأنها خرق لنظام العالم الثابت – تعد دليلاً على وجود الله .

ولنسأل أنفسنا بعد هذا الذى وضحناه عن طبيعة العالم هذا السؤال : لو أن إنساناً تنبأ بأن سيكون فى فصل الصيف حر ،لما علمه من نظام العالم فى هذا الشأن . هل يعد بتنبؤه هذا مؤثراً فى إحداث الحر ؟ إذن علمه لا يؤثر ، لأن علمه كاشف له فقط طبيعة الحياة .

ولو أن « طبيباً » قد فحص « مريضاً » ولما لم يجد أملاً فى شفائه ، قال لأهله : « سيموت قريباً » وهو قد قال هذا القول لما يعلمه من أعراض ظاهرة على المريض تدل على موته ، بحسب علمه . فهل يعد قول الطبيب « مؤثراً » فى موت الرجل ؟ كلا . إنما قوله من علمه الذى « **كشف** » له عما سيحدث . وعلمه « **لم يؤثر** » فى ما سيحدث

يقول الشيخ محمد حسن آل ياسين : « إن العلم الإلهى ، ليس علة للفعل ، لأن حقيقة العلم ، إنما هى انكشاف الواقع على ما هو عليه ، ولا علاقة لهذا الانكشاف بصدور ذلك الفعل ، ليكون علة له »[1]

وفى القرآن الكريم : آيات تدل على تغير علم الله – بحسب ظاهر الآيات – مما يدل على مشابهة علم الله بعلم الناس . ولقد أجابوا عن « موهم التشابه » بإجابات :

ففى تفسير مجمع البيان فى قوله تعالى : ﴿ **فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين** ﴾ [العنكبوت ٣] : « وإنما قال : ﴿ **فليعلمن** ﴾ مع أن الله سبحانه كان عالماً فيما لم يزل ، بأن المعلوم سيحدث . لأنه لا يصح وصفه سبحانه

---

(١) ص ١٨ العدل الإلهى بين الجبر والإختيار .

فيما لم يزل بأنه عالم بأنه حادث ، وإنما يعلمه حادثا إذا حدث . وقيل : معناه : فليميز الله الذين صدقوا من الذين كذبوا بالجزاء والمكافأة . وعبر عن الجزاء والتمييز بالعلم ، لأن كل ذلك إنما يحصل بالعلم . فأقام السبب مقام المسبب . ومثله فى إقامة السبب مقام المسبب : قوله تعالى : ﴿ **كانا يأكلان الطعام** ﴾ فهذا سبب قضاء الحاجة . فكنى بذكره عنها » ا.هـ والصحيح : أن الله تعالى يخاطب الناس على قدر عقولهم ؛ ليقدر البشر على فهم صفاته . فإن من شأن البشر تغير العلم . لو حدث كذا لصار كذا . فكلمهم الله عن نفسه كأنه واحد منهم . تفكيره مثل تفكيرهم وعلمه مثل علمهم حتى يفهموا مراده عز وجل . أما هو فأعلى وأجل من أن يقاس بالناس . لأنه ﴿ **ليس كمثله شىء** ﴾ كما فى القرآن الكريم . وكما فى التوراة - كما يعتقد أهل الكتاب - « ليس مثل الله » وكما فيها أيضاً : « إن أفكارى ليست كأفكاركم، ولا طرقكم طرقى . يقول الرب . كما علت السموات عن الأرض ، كذلك طرقى علت عن طرقكم ، وأفكارى عن أفكاركم » [إشعياء ٥٥ : ٨ - ٩] .

والقائلون بأن الإنسان قد خلقه الله حراً . يقولون : إن « إرادة » الله تعالى على أنواع ثلاثة : النوع الأول : الإرادة من أجل التكوين والخلق . وهذه الإرادة تتحقق على مراد الله تعالى . فقد قال : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن . فيكون** ﴾ والنوع الثانى : الإرادة من أهل العالم لإطاعة أوامر الله ونواهيه - أى إرادة للعمل بالشريعة - وهذه الإرادة منحها الله **بوجوده** وكرمه للناس ، ولا يجبر واحداً منهم على أمر من الأمور . فقد قال : ﴿ **بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره** ﴾ والنوع الثالث : الإرادة من أجل خرق طبيعة العالم التى خلقه الله عليها . وهذه الإرادة تتحقق على مراد الله تعالى . فإنه لما طغى فرعون ، وأراد إدراك بنى إسرائيل ، وأراد الله إهلاكه ، نفذت إرادة الله ولم تنفذ إرادة فرعون . ولما أراد العالم محو الإسلام ، وأراد الله إظهاره ، نفذت إرادة الله . ولم تنفذ إرادة أهل العالم .

يقول القاضى عبد الجبار بن أحمد - رحمه الله - : « وربما يتعلقون بقوله تعالى : ﴿ **إن ربك فعال لما يريد** ﴾ [هود ١٠٧] قالوا : ففى أفعال العباد ما يريده الله تعالى ، فيجب أن يكون فاعلاً لها . وجوابنا : إن هذا كلام يقتضى كونه فاعلاً لما يريده ، فى الحال الذى يريده ... من فعل نفسه . ولا يجوز غير هذا . لأن الآية وردت مورد الامتداح ، ولا مدح فى أن يكون فاعلاً لأفعال العباد ،

وفيها القبائح والمناكير »[1]

فأنت ترى أن المعتزلة لا ينكرون صفة « الإرادة » كما ادعى كارهوهم والمشنعون عليهم بما لم يصدر عنهم ، وإنما فسروها بالكلام الصادر عن الله نفسه . أى إنه تعالى أخبر عن نفسه بأنه قادر على التكوين ، فقالوا كما قال . وأخبر عن نفسه بأنه ترك للإنسان الحرية ، فقالوا كما قال . فإذن هم نصيّون يتّبعون النص ، ويقولون بمقتضاه . ومثل ذلك مثل ما إذا استأجر إنسان فَعلة لكرْمه ، واتفق معهم على أجر مساوٍ للعمل . ثم تركهم يعملون ، وراقبهم إلى آخر النهار . ثم ابتدأ يحاسبهم على ما عملوا وقدموا

وادعى كارهوهم والمشنعون عليهم بما لم يصدر عنهم : أن من يقول بحرية الإنسان ، فقد أثبت للإنسان خلقاً ، مستقلاً عن خلق الله

يقول القاضى : « ومما يتعلقون به أيضاً : إن الواحد منا ، لو كان محدثاً لتصرفاته ، لوجب أن يسمى خالقاً لها . والأمة قد اتفقت على أن لا خالق إلا الله . وقد نطق به الكتاب أيضاً . قال الله تعالى : ﴿ **هل من خالق غير الله** ﴾ ؟ [فاطر ٣] وقال : ﴿ **أم جعلوا لله شركاء ، خلقوا كخلقه . فتشابه الخلق عليهم** ﴾ [الرعد ١٦]

والأصل فى الجواب عن ذلك : أنا لو خلينا وقضية اللغة ، لأجرينا هذا اللفظ على الواحد منا ، كما نجريه على الله تعالى . لأن الخلق ليس بأكثر من التقدير .

قال زهير :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى[2]

وقيل للحجاج : « إنك إذا وعدت وفيت ، وإذا خلقت فريت » أى إذا قدرت قطعت .

وأظهر من هذا كله : قوله تعالى : ﴿ **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها ، فتكون طيراً بإذنى** ﴾ [المائدة ١١٠] وقوله تعالى : ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ [المؤمنون ١٤] فلولا أن هذا الاسم مما يجوز إجراؤه على غيره . وإلا لتنزل منزلة قوله : فتبارك الله أحسن الآلهة . ومعلوم خلافه »[3] ا . هـ

---

(١) ص ٣٨٤ شرح الأصول الخمسة

(٢) يقول الشيبانى فى شرح ديوان زهير ، ص ٩٤ : « الخالق : الذى يقدِّر ويهيىء للقطع ، والذى يقدر الأديم ويهيئه لأن يقطعه ويخرزه ثم يفريه ، أى يشقه كما قدر . وهذا المثل ضربه لحزمه »

(٣) ص ٣٧٩ - ٣٨٠ شرح الأصول الخمسة

الفصل الثانى

فى

العناية الإلهية عند أهل الكتاب

أولاً : جاء فى سفر الملوك الأول ، وفى سفر أخبار الأيام الثانى : أن الملك « أخآب » ملك إسرائيل ، كان فى معيته أنبياء كذبة . وهو نفسه كان كاذباً ومحباً لسفك دماء الصادقين من الأنبياء – والأنبياء هم العلماء – ولما أراد قتال ملك العمونيين ، استشار أنبياءه . فأشاروا عليه بالخروج لقتاله . ولكن نبياً صادقاً اسمه « مِيخا » بَيّن لأخآب : أنه سيُهزم ويُقتل . فقال له غاضباً : يا ميخا كيف عرفت ذلك ؟ فأجاب ميخا :

« خُيِّل لى أن قد التأمت ندوة من الملائكة فى حضرة الله . وسمعت الله يقول . هكذا : من يغوى أخآب ، ليصعد ضد عمون ويقتل ؟ فقال واحد شيئاً ، وقال آخر شيئاً آخر . ثم أتى ملاك فقال : يارب أنا أحارب أخآب فأذهب إلى أنبيائه الكذبة وألقى كذباً فى أفواههم ، وهكذا يصعد ويقتل . فلما سمع الله هذا ، قال : اذهب وافعل هكذا ، فإنك تفلح »

عن هذا المكتوب فى التوراة سئل المسيح عليه السلام كيف سمح الله للملاك أن يلقى وحياً كاذباً ليضل به أخآب ؟

وأجاب المسيح عليه السلام :

أ – بأن « أخآب » قتل الصادقين من الأنبياء ، ليمحو عبادة الإله الحقيقى ، وليبقى على عبادة الأصنام . ولأنه أضل الناس ، أضله الله على لسان المضلين ، ليقتل كما قَتل . وفرق المسيح بين الذيـن قَتلهم موسى عليه السلام وبين الذين قتلهم أخآب بقوله : إن المقتول على يد كليهما لن تعود إليه الروح . ولكن الهدف من القتل ليس واحداً ، فإن ذات العمل الواحد أحدث نتيجتين متضادتين ، فهو على يد موسى من أجل عبادة الله ، وهو على يد أخآب من أجل عبادة الأصنام . يقول المسيح : « إن موسى قتل ناساً ، وأخآب قتل ناساً . قولوا لى : أيعد هذا قتلاً من كليهما ؟ لا البتة . لأن موسى قتل الناس ليبيد عبادة الأصنام ، وليبقى على عبادة

الإله الحقيقى . ولكن أخآب قتل ناساً ليبيد عبادة الإله الحقيقى ، وليبقى على عبادة الأصنام . لذلك تحول قتل موسى للناس ضحية ، على حين تحول قتل أخآب تدنيساً » [بَرْ ١٥٩ : ١٤ - ١٨]

ب - وقال المسيح : إنه لا يصح أن يقول الإنسان : إن « إضلال الله » هو مثل إضلال البشر ، أو « مكر الله » مثل مكر البشر . لأن طرق الله ليست مثل طرق الناس ، ولا تفكيره مثل تفكيرهم . والدليل على ذلك : أن الإنسان خاضع للشريعة ، والله ليس خاضعا لها . يقول المسيح : « قولوا لى إذن : هل أخطأ موسى عبد الله ، بقتل كل الذين قتلهم ؟ أجاب التلاميذ : حاش لله ، حاش لله أن يكون موسى قد أخطأ بطاعته لله الذى أمره . فقال حينئذ يسوع . وأنا أقول : حاش لله أن يكون قد أخطأ ذلك الملاك ، الذى خدع أنبياء أخآب الكذبة بالكذب . لأنه كما أن الله يقبل قتل الناس ذبيحة ؛ فهكذا قبل الكذب حمداً . الحق أقول لكم : كما يغلط الطفل الذى يصنع حذاءه بقياس رجلى جبار ؛ هكذا يغلط من يجعل الله خاضعاً للشريعة » [بر ١٦١ : ٧ - ١١]

يريد أن يقول : إن الناس يقدمون قرابين ويذبحونها تقرباً إلى الله من أجل تطهير قلوبهم ، وكذلك قتل الكافرين يقبله الله كما يقبل الذبيحة من أجل تطهير الأرض من الكافرين . والكذب قد قبله من « الملاك » لغواية أخآب وإضلاله . لأنه إذا قتل سيعبد الله الناس ويحمدوه . وقد عبرت التوراة عن الله بهذه الألفاظ ، لتقريب ذات الله إلى عقول البشر . أما الله عز وجل فإنه ليس كمثله شيء

ثانياً : كان شائعاً فى العالم أن الخير من إله ، وأن الشر من إله . وأن إله الخير وإله الشر هما معا الخالقان للدنيا وما فيها . وبنو إسرائيل كانوا يدعون إلى الإله الواحد الذى يدعو إليه المسلمون . ولكى يمنعوا الظن والوهم بأن الواحد لا يصدر عنه شرّ ، وإنما يصدر عنه الخير فقط ، عبروا دائما بأن الخير والشر من الإله الواحد حتى لا يفكر الناس فى عبادة غيره ، بإيعاز من الشيطان . ومما جاء فى التوراة قول النبى عاموس : « إنه لا يوجد شر فى المدينة لم يصنعه الله » [عا ٣ : ٦]

ولقد سئل المسيح عليه السلام عن قول عاموس هذا ، فأجاب بقوله : « إن عاموس نبى الله يتكلم هنا عن الشر ، الذى يسميه العالم شراً . لأنه لو استعمل لغة الأبرار ، لما فهمه العالم . لأن كل البلايا حسنة . إمّا حسنة لأنها تطهر الشر الذى فعلناه ، وإما حسنة لأنها تمنعنا عن ارتكاب الشر ، وإما حسنة لأنها تعرف الإنسان حال هذه الحياة ، لكى نحب ونتوق إلى الحياة الأبدية . فلو قال النبى

عاموس : « ليس فى المدينة من خير إلا كان الله صانعه » لكان ذلك وسيلة لقنوط المصابين ، متى رأوا أنفسهم فى المحن ، والخطأة فى سعة من العيش . **وأنكى من ذلك : أنه متى صدق كثيرون أن للشيطان سلطة على الإنسان ، خافوا الشيطان وخدموه تخلصاً من البلايا ...**

لو قال عاموس : « ليس فى المدينة من خير ، إلا كان الله صانعه » لكان لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته قد ارتكب خطأ فاحشاً لأن العالم لا يرى خيراً سوى الظلم ، والخطايا التى تصنع فى سبيل الباطل . وعليه يكون الناس أشد توغلاً فى الإثم لأنهم يعتقدون أنه لا يوجد خطيئة أو شر لم يصنعه الله . وهو أمر تتزلزل لسماعه الأرض ... إنه لما قال عاموس : « إن الله صنع شراً فى المدينة » مكلما العالم فهو إنما تكلم عن البلايا التى لا يسميها شراً ، إلا الخطأة » [برنابا ١٦١، ١٦٢]

ثالثاً : جاء فى التوراة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : « إنى أرحم من أرحم ، وأقسى من أقسى » [خروج ٣٣ : ١٦ ، ١٩]

ومعناه : أن إرادة الله نافذة ، رغم أنف الإنسان . وعليه : فيكون الإنسان مجبراً لا مختاراً . وكيف يكون الإنسان مجبراً ، والمسيح ينادى بالاختيار ؟

أجاب المسيح بأن هذه العبارة من الله أ - ليعلم الناس أن التوفيق من الله وهذا التوفيق من كرم الله وجوده ورحمته . فإذا صار الإنسان كاملاً ، لا يظن أن كماله من نفسه ، بل كماله هبة من الله وفضل منه ورحمة . ب - كان بعض الناس يعتقد فى إلهين اثنين ، أحدهما للخير وثانيهما للشر ، وكان بعضهم يعتقد فى آلهة أخرى . فلكى لا يظن أحد أن الشر من بعض الآلهة . فيتجه إليه ويترك الله . بين الله أنه قادر على كل شىء . ت - ومع قوله تعالى - كما يقولونه - « أقسى من أقسى » فإن الله بين أنه لا يقسى إلا قلب من قسا على عباده ، ولا يضل إلا من اختار الضلال أولا بمحض اختياره . ث - ومع هذا التعليل يقول المسيح : إن الناس لا يفقهون كيف خلق الله الكون بكلمته من لاشىء ، ولا يفقهون أزلية الله . وهم أيضاً لا يفقهون معنى القدر . وحيث أن الإنسان لا يقدر أن ينكر الواقع لأنه لا يعرف كيفيته ، كذلك لا يحق له أن ينكر القدر إذا لم يعرف كيفيته .

ففى الفصل السادس والستين بعد المائة وما بعده من إنجيل برنابا :

« أجاب اندراوس : ولكن كيف يجب أن يفهم ما قال الله لموسى من أنه يرحم

من يرحم ، ويقسى من يقسى ؟ أجاب يسوع : إنما يقول الله هذا لكيلا يعتقد الإنسان أنه خلص بفضيلته ، بل ليدرك أن الحياة ورحمة الله قد منحهما له الله من جوده . ويقوله ليتجنب البشر الذهاب إلى أنه توجد آلهة أخرى سواه . .

فإذا هو قسى قلب فرعون ، فإنما فعله لأنه نكل بشعبنا ، وحاول أن يبغى عليه بإبادة كل الأطفال الذكور من إسرائيل ، حتى كاد موسى يخسر حياته . وعليه أقول لكم : حقاً إن أساس القدر إنما هو شريعة الله ، وحرية الإرادة البشرية . بل لو قدر الله أن يخلص العالم كله ،حتى لا يهلك أحد ، لما أراد أن يفعل ذلك ، لكى لا يجرد الإنسان من الحرية التى يحفظها له ، ليكيد الشيطان . حتى يكون لهذه الطينة التى امتهنها الروح – الشيطان – وإن أخطأت كما فعل الروح قدرة على التوبة والذهاب للسكن فى ذلك الموضع ، الذى طرد من الروح . فأقول : إن إلهنا يريد أن يتبع برحمته حرية إرادة الإنسان ، ولا يريد أن يترك بقدرته غير المتناهية : المخلوق . وهكذا لا يقدر أحد فى يوم الدين أن يعتذر عن خطاياه . لأنه يتضح له : كم فعل الله لتجديده . وكم وكم قد دعاه إلى التوبة

وعليه . فإذا كانت أفكاركم لا تطمئن لهذا ، ووددتم أن تقولوا أيضاً : لماذا هكذا ؟ فإنى أوضح لكم لماذا ؟ وهو هذا : قولوا لى : لماذا لا يمكن للحجر أن يستقر على سطح الماء ، مع أن الأرض برمتها مستقرة على سطح الماء ؟ قولوا لماذا كان التراب والهواء والماء والنار متحدة بالإنسان ، ومحفوظة على وفاقه ؟ مع أن الماء يطفىء النار ، والتراب يهرب من الهواء ، حتى أنه لا يقدر أحد أن يؤلف بينهما . فإذا كنتم إذا لا تفقهون هذا – بل إن كل البشر ، من حيث هم بشر ، لا يقدرون أن يفقهوه – فكيف يفقهون : أن الله خلق الكون من لا شيء ، بكلمة واحدة ؟ كيف يفقهون أزلية الله ؟ حقا . لا يتاح لهم أبداً أن يفقهوا هذا ، لأنه لما كان الإنسان محدوداً ، ويدخل فى تركيبه الجسد ، الذى هو كما يقول النبى سليمان: « قابل للفساد ، بضغط النفس » ولما كانت أعمال الله مناسبة لله ، فكيف يمكن للإنسان إدراكها ؟ فلما رأى إشعياء نبى الله هذا ، صرخ قائلاً : « حقاً إنك لإله محتجب » ويقول عن رسول الله ، كيف خلقه الله : « أما جيله فمن يصفه » ؟ ويقول عن عمل الله : « من كان مشيره فيه » ؟ عن لذلك يقول الله للطبيعة البشرية : « كما تعلو السماء عن الأرض ، هكذا تعلو طرقى عن طرقكم ، وأفكارى عن أفكاركم »

لذلك أقول لكم إن كيفية القدر غير واضحة للإنسان ، وإن كان ثبوته

حقيقياً ، كما قلت لكم . أفيجب إذن على الإنسان أن ينكر الواقع ، لأنه لا يقدر أن يعرف كيفيته ؟ حقاً . إنى لم أجد أحداً يرفض الصحة ، وإن لم يكن يمكن إدراك كيفيتها »

رابعاً : فى التوراة آيات تدل على أن الإنسان حر فى اختيار أفعاله ، لكى لا يكون له عذر أمام الله ، إن هو أعرض عن شريعة الله . ومن هذه الآيات . قول الله تعالى – كما كتبوا – لكل إنسان من بنى إسرائيل على لسان موسى عليه السلام : « إن هذه الوصية التى أوصيك بها اليوم ليست عسرة عليك ، ولا بعيدة منك . ليست هى فى السماء حتى تقول : من يصعد لأجلنا إلى السماء ، ويأخذها لنا ، ويسمعنا إياها ، **لنعمل بها** ، ولا هى فى عبر البحر ، حتى تقول : من يعبر لأجلنا البحر ، ويأخذها لنا ، ويسمعنا إياها ، **لنعمل بها** ، بل الكلمة قريبة منك جداً . فى فمك ، وفى قلبك . **لتعمل بها** » [تثنية ٣٠ : ١١ – ١٤]

والمراد بالوصية : شريعة التوراة . والغرض من الوصية : العمل بالتوراة . وقد أزاح الله العذر بقوله : إنها سهلة وميسرة وقريبة من الإنسان . والدليل على أن المراد بالوصية شريعة التوراة ، وأن الله تعالى جعل الإنسان حراً ليعمل بها : ما جاء بعد هذه الآيات : « إنى أوصيتك اليوم . تحب الرب إلهك ، وتسلك فى طرقه ، وتحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه ، لكى تحيا وتنمو ويباركك الرب إلهك » والدليل على أن الإنسان مخير لا مسير ؛ قوله بعد هذه الآيات : « فاختر الحياة ، لكى تحيا أنت ونسلك » والدليل على أن الإيمان فى مسمى الشرع قول وعمل : قوله : « تحب الرب إلهك ، وتسلك فى طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه »

هذا نص من نصوص التوراة يدل على أن الإنسان مخير لا مسير . لكن علماء الفريسيِّين تركوا ظاهر الدلالة من النص ، وادعوا أن الإنسان لا حرية له ولا اختيار . وسبب ادعائهم : أن « نبوخذ ناصَّر » ملك بابل – الذى كان فى سنة ٥٨٦ ق م – أهان بنى إسرائيل بالقتل والأسر . حتى أنه من شدة الضيق ، زعم المبطلون أنه لا يوجد إله ، لا فى السماء ، ولا فى الأرض . إذ أنه لو كان موجودا ، لما ترك شعبه الذى اختاره ذليلا فى أيدى المشركين . يقول إرمياء عن هؤلاء المبطلين : « جحدوا الرب وقالوا : ليس هو إياه » [إرمياء ٥ : ١٢] ويقول حزقيال عنهم إنهم قالوا : « الرب قد هجر الأرض » [حزقيال ٩ : ٩] ولما زعم هؤلاء بأنه لا إله ، إذ لا عناية بالإنسان الخير ، هب علماء الفريسيين ليواجهوا الانحلال فى الدولة بقولهم : إن ما حصل لشعب الله ، حصل بمشيئة الله . لحكمة

يعلمها هو . وليس لأحد من الأمر من شيء . وظل قولهم : عقيدة من عقائد الإيمان إلى زمن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام .

ولقد بين المسيح : ١ – أن علماء الفريسيين ليسوا على حق فى قولهم بالجبر ٢ – لو كان الجبر حقاً ، لما أمر الله بقوله : افعل ، أو لا تفعل ٣ – إن كتاب موسى عليه السلام صرح بحرية الإنسان رغم تحريفه ٤ – لو كان الجبر حقاً ، ما أمر الله الخاطىء بالتوبة على لسان أنبياء بنى إسرائيل ، كيوئيل ، وإشعياء ، وحزقيال ، وهوشع بن بئيرى .

قال المسيح عليه السلام : « يزعم الفريسيون : أن كل شيء قدر على طريقة لا يمكن معها لمن كان مختاراً ، أن يصير منبوذاً . ومن كان منبوذاً ، لا يتسنى له بأية وسيلة كانت ، أن يصير مختاراً . وأنه كما أن الله قدر أن يكون عمل الصلاح ، هو الصراط ، الذى يسير فيه المختارون إلى الخلاص ، هكذا قدر أن تكون الخطيئة هى الطريق الذى يسير فيه المنبوذون إلى الهلاك

لُعِـنَ اللسان الذى نطق بهذا ، واليد التى سطرته . لأن هذا إنما هو اعتقاد الشيطان ..

أما كون الإنسان حراً . فواضح من كتاب موسى . لأن إلهنا عندما أعطى الشريعة على جبل سيناء قال هكذا : « ليست وصيتى فى السماء ، لكى تتخذ لك عذراً ، قائلا : من يذهب ليحضر لنا وصية الله ؟ ومن يا ترى يعطينا قوة لنحفظها ؟ ولا هى وراء البحر ، لكى تعد نفسك كما تقدم بل وصيتى قريبة من قلبك ، حتى أنك تحفظها متى شئت »

قولوا لى : لو أمر « هيرودوس » شيخاً أن يعود يافعاً ، ومريضاً أن يعود صحيحاً ثم إذا هما لم يفعلا ذلك ، أمر بقتلهما أفيكون هذا عدلاً ؟ أجاب التلاميذ لو أمر هيرودوس بهذا ، لكان أعظم ظالم وكافر . حينئذ تنهد يسوع ، وقال : أيها الأخوة ما هذا إلا ثمار التقاليد البشرية ، لأنه بقولهم : إن الله قدر فقضى على المنبوذ بطريقة لا يمكنه معها أن يصير مختاراً ، يجدفون على الله كأنه طاغ وظالم . لأنه يأمر الخاطىء ، إذا أخطأ أن يتوب . وعلى هذا القدر ينزع من الخاطىء ، القدرة على ترك الخطيئة ، فيسلبه التوبة بالمرة .

ولكن إسمعوا ما يقول الله على لسان يوئيل النبى : « لعمرى يقول إلهكم : لا أريد موت الخاطىء ، بل أود أن يتحول إلى التوبة » أيقدر الله إذن ما لا يريده ؟

تأملوا ما يقول الله ، وما يقول فريسيو الزمن الحاضر

يقول الله أيضاً على لسان النبى اشعياء : دعوت فلم تصغوا إلى » وما أكثر ما دعا الله . فاسمعوا ما يقول على لسان هذا النبى نفسه : « **بسطت يدى طول النهار إلى شعب لا يصدقنى بل يناقضنى** »

فإذا قال فريسيونا : إن المنبوذ لا يقدر أن يصير مختاراً . فهل يقولون سوى أن الله يستهزى بالبشر كما لو استهزأ بأعمى ، يريه شيئاً أبيض ، وكما لو استهزأ بأصم يكلمه فى أذنيه ؟

أما كون المختار يمكن أن ينبذ . فتأملوا ما يقول إلهنا على لسان حزقيال النبى : « **يقول الله لعمرى إذا رجع البار عن بره ، وارتكب الفواحش فإنه يهلك ، ولا أذكر فيما بعد شيئا من بره . فإن بره سيخذله أمامى ، فلا ينجيه وهو متكل عليه** »

أما نداء المنبوذين فماذا يقول الله فيه على لسان هوشع ، سوى هذا : « **إنى أدعو شعباً غير مختار ، فأدعوهم مختارين** »

إن الله صادق ، ولا يقدر أن يكذب وإن الله لما كان هو الحق ، فهو يقول الحق . ولكن فريسيى الوقت الحاضر ، يناقضون الله كل المناقضة بتعليمهم »

خامساً : وفى التوراة آيات تشير إلى مجيء محمد رسول الله ﷺ لينسخ شريعة موسى عليه السلام . ومن هذه الآيات : أ - أن الله تعالى وعد إبراهيم عليه السلام بقوله : « بنسلك أبارك كل قبائل الأرض » [تكوين ٢٢ : ١٨] ب - ونسل إبراهيم فى ولديه إسماعيل وإسحق. فقد جاء عن إسماعيل : « وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه » وبدأت بركة إسحق من موسى بن عمران . عليه السلام وستبدأ بركة إسماعيل من محمد بن عبد الله عليه السلام . وعلماء بنى إسرائيل وضعوا النبوءات للعوام عن محمد ﷺ بصيغة تحتمل أنه من إسماعيل ، وتحتمل أنه من إسحق . وأضفوا عليه الألقاب المعظمة التى يطلقونها على علمائهم وملوكهم وأنبيائهم - ومن الألقاب لقب « مَسِيًا » أى نبى وعالم وملك - وذلك بحسب لسانهم ، أو لإيهام العوام وتضليلهم بأنه سيكون من إسحق من نسل ولده يعقوب .

ولقد اعترف عيسى عليه السلام بأنه ليس هو « المَسِيًا » وذلك بقوله : « لعمر الله الذى تقف بحضرته نفسى : إنى لست مسيا ، الذى تنتظره كل قبائل الأرض ، كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلا : بنسلك أبارك كل قبائل الأرض » [برنابا ٩٦ : ٨ - ٩]

ثم بين أن المسيا هو محمد رسول الله ﷺ ثم قال لعالم من علماء الفريسيين :
« قل لى أيها الأخ – وأنت الفقيه المتضلع من الشريعة – بأى ضرب موعد مسيا لأبينا إبراهيم ؟ أبإسحق أم بإسماعيل ؟ أجاب الكاتب : يا معلم أخشى أن أخبرك عن هذا بسبب عقاب الموت . حينئذ قال يسوع : إنى آسف أيها الأخ . أنى أتيت لآكل خبزاً فى بيتك . لأنك تحب هذه الحياة الحاضرة أكثر من الله خالقك . ولهذا السبب تخشى أن تخسر حياتك ، ولكن لا تخشى أن تخسر الإيمان والحياة الأبدية ، التى تضيع متى تكلم اللسان عكس ما يعرف القلب من شريعة الله .

حينئذ بكى الكاتب الصالح ، وقال : يا معلم لو عرفت كيف أثمر ، لكنت قد بشرت مراراً كثيرة ، بما أعرضت عن ذكره ، لئلا يحصل شغب فى الشعب .
أجاب يسوع : يجب عليك أن لا تحترم الشعب ولا العالم كله ولا الأطهار كلهم ولا الملائكة كلهم إذا أغضبوا الله . فخير أن يهلك العالم كله من أن تغضب الله خالقك ، ولا تحفظه فى الخطيئة . لأن الخطيئة تهلك ولا تحفظ . أما الله فقدير على خلق عوالم عدد رمال البحر ، بل أكثر

حينئذ قال الكاتب : عفواً يا معلم لأنى قد أخطأت . قال يسوع : الله يغفر لك . لأنك إليه قد أخطأت .

فقال من ثم الكاتب : لقد رأيت كتيباً قديماً مكتوبا بيد موسى ويشوع – الذى أوقف الشمس كما قد فعلت – خادمى ونبيى الله ، وهو كتاب موسى الحقيقى . ففيه مكتوب : أن اسماعيل هو أب لمسيا ، وإسحق أب لرسول مسيا . وهكذا يقول الكتاب :

إن موسى قال : أيها الرب إله إسرائيل القدير الرحيم ، أظهر لعبدك فى سناء مجدك . فأراه الله من ثم رسولة على ذراعى إسماعيل . وإسماعيل على ذراعى إبراهيم . ووقف على مقربة من إسماعيل : إسحق . وكان على ذراعيه طفل يشير بأصبعه إلى رسول الله قائلا : هذا هو الذى لأجله خلق الله كل شيء . فصرخ من ثم موسى بفرح : يا إسماعيل إن فى ذراعيك العالم كله ، والجنة . اذكرنى أنا عبد الله ، لأجد نعمة فى نظر الله ، بسبب ابنك ، الذى لأجله صنع الله كل شيء .

فقال حينئذ يسوع : انظر أن لا تعود أبدا . فتحجز الحق ، لأنه بالإيمان بمسيا ، سيعطى الله الخلاص للبشر ، ولن يخلص أحد بدونه » [برنابا ١٩٠ – ١٩٢]

ولما نبه المسيح عيسى بن مريم عليه السلام على مجيء محمد رسول الله ﷺ

مستدلاً ببركة إسماعيل المنصوص عليها فى التوراة . قال له تلاميذه : إن التنبيه على مجىء هذا النبى يدل على مذهب الجبر . وهذا نقيض ما تُبَيِّنُ لنا : أن الله تعالى قد خلق الإنسان حراً . فأجاب المسيح بقوله : إن الله تعالى سبق فى علمه أن يصطفى هذا النبى رحمة للعالمين . و« سبق الإصطفاء » لا يناقض أن الله قد خلق الإنسان حراً . وقد شرحه المسيح على هذا النحو :

١ - إن إرادة الله لا يقف أحد فى طريقها . ٢ - إن أفعال الله معللة بالحكمة . ٣ - كل فعل يحدث ، فله وسيلة حدث بها الفعل .

وعلى ذلك : فإن الله أراد إصلاح العالم . والحكمة من هذه الإرادة :تسهيل شريعته للناس ليعبدوه . والوسيلة التى تبين للناس شريعته:هى النبى المصطفى . فإذن « سبق الإصطفاء » ليس معناه الجبر ، بل معناه : أمر يحدث فى حينه ، لحكمة تقتضى حدوثه

قال المسيح : « فماذا يمكن أن يكون معنى سبق الإصطفاء ، سوى إنه إرادة مطلقة ، تجعل للشىء غاية ، وسيلة الوصول إليها فى يد المرء . فإنه بدون وسيلة ، لا يمكن لأحد تعيين غاية فكيف يتسنى لأحد تقدير بناء بيت ، وهو لا يعوزه الحجر والنقود ، ليصرفها فقط . بل يعوزه موطىء القدم من الأرض . لا أحد البتة . فسبق الإصطفاء لا يكون شريعة الله بالأولى ، إذا استلزم سلب حرية الإرادة التى وهبها الله للإنسان ، بمحض جوده . فمن المؤكد أننا نكون إذ ذاك آخذين فى إثبات مكرهة ، لا سبق إصطفاء » [برنابا ١٦٤ : ٧ - ١١]

سادساً : فى التوراة فى سفر التكوين : أن الله تعالى نهى آدم وحواء فى الجنة عن الأكل من الشجرة . ومن قبل أن يخلقهما هو عالم بأنهما للأرض . فلماذا نهاهما وهو عالم بأنهما سيخطئان ؟ ولماذا أسكنهما الجنة ، وهو قد خلقهما للخلافة فى الأرض ؟

أ - لقد سئل المسيح عن هذا الأمر . فقد دنا منه أحد العلماء وقال له « أيها المعلم الصالح . قل لى : لماذا لم يهب الله ، أبوينا : حنطة وتمراً . فإنه إذا كان يعلم أنه لابد من سقوطهما ، فمن المؤكد أنه كان يجب أن يسمح لهما بالحنطة ، أو أن لا يرياها »

وأجاب المسيح بقوله : « إن الله خالقنا ، لا يوافق فى عمله نفسه لنا لذلك لا يجوز للمخلوق أن يطلب طريقه وراحته . بل بالحرى مجد الله خالقه ليعتمد

المخلوق على الخالق ، لا الخالق على المخلوق . لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته . لو وهب الله كل شيء لما عرف الإنسان نفسه أنه عبد الله ، ولكان حسب نفسه سيد الفردوس . لذلك نهاه الله المبارك إلى الأبد . الحق أقول لكم : إن كل من كان نور عينيه جلياً ، يرى كل شيء جلياً يستخرج من الظلمة نفسها نوراً ولكن الأعمى لا يفعل هكذا

لذلك أقول : لو لم يخطىء الإنسان لما علمت أنا ولا أنت رحمة الله وبره ولو خلق الله الإنسان غير قادر على الخطيئة ، لكان نداً لله فى ذلك الأمر لذلك خلق الله المبارك الإنسان صالحاً وباراً . ولكنه أن يفعل ما يريد من حيث حياته وخلاصه لنفسه أو لعنته » [برنابا ١٥٤ ١٣ - ٢٥]

ب - وسأله عالمان من علماء الفريسيين هذا السؤال : « لماذا أكل الإنسان حنطة وثمراً ؟ هل أراد الله أن يأكلهما أم لا ؟ »

« أجاب يسوع : إن سؤالكما كطريق فى جبل ذو جرف عن اليمين وعن اليسار ، ولكن أسير فى الوسط ثم قال يسوع لما كان كل إنسان محتاجاً ، كان يعمل كل شيء لأجل منفعته ولكن الله الذى لا يحتاج إلى شيء عمل بحسب مشيئته . لذلك لما خلق الله الإنسان ، خلقه حراً ، ليعلم أن ليس لله حاجة إليه ، كما يفعل الملك الذى يعطى حرية لعبيده ، ليظهر ثروته ، وليكون عبيده أشد حباً له

قد خلق الله الإنسان حراً ، لكى يكون أشد حباً لخالقه ، وليعرف جوده لأن الله وهو قادر على كل شيء ، غير محتاج إلى الإنسان ، فإنه إذ خلقه بقدرته على كل شيء تركه حراً بجوده ، على طريقة يمكنه معها مقاومة الشر وفعل الخير إن الله على قدرته على منع الخطيئة ، لم يرد أن يضاد جوده ، إذ ليس عند الله تضاد . فلما عملت قدرته على كل شيء ، وجوده ، عملهما فى الإنسان ، لم يقاوم الخطيئة فى الإنسان ، لكى تعمل فى الإنسان . رحمة الله وبره » [برنابا ١٥٥]

وإذا قد فرغنا من الكلام على العناية الإلهية فى التوراة نذكر ثلاثة أمور ؛ لهم صلة بهذا الكلام وهم :

١ - توضيح نصوص الأسفار الخمسة عن محمد ﷺ
٢ - وبيان كلام علماء بنى إسرائيل فى القضاء والقدر
٣ - وهل النصرانية ديانة مستقلة عن ديانة اليهود ؟

الأمر الأول..

النبى الأمى

فى

التوراة والإنجيل

بين الله تعالى فى التوراة وفى الإنجيل لعلماء بنى إسرائيل ولسائر الأمم : أن سيظهر محمد من آل اسماعيل بن ابراهيم ليكون للعالمين نذيراً ، وأنه سينسخ شريعة موسى وسيغير عوائده وشعائره . ووصف صحابته بالطهر والعفاف ، وأنهم أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، وأنهم فى بدء الإسلام سيكونون جماعة صغيرة ، ثم تنمو رويداً رويداً ، حتى يكونون كباراً ، يعمل الناس لهم ألف حساب وحساب

ففى الأصحاح السابع عشر من سفر التكوين : أن الله تعالى قال لإبراهيم « سر أمامى . وكن كاملاً فأجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيراً جداً » والمعنى : امش فى الناس بالدعوة إلى دينى وعرفهم بى لينبذوا عبادة الأوثان . وكن كاملاً أى أمة وقدوة فى عمل الخير ولئن التزمت بالدعوة والقدوة ، أجعل عهدى معك بالنبوة والرسالة والملك على الأمم ، وقد التزم ابراهيم عليه السلام ومن أجل ذلك قال الله له سأجعل عهدى بالنبوة والرسالة والملك على الأمم فى نسل إسحق عليه السلام إذا مشوا بالدعوة إلى وكانوا قدوة فى عمل الخير . فقال إبراهيم لله : وإسماعيل ولدى البكر أتمنى أن تجعل العهد فى نسله أيضاً فيكون العهد بالنبوة والرسالة والملك مشتركاً بين اسماعيل واسحق ويكون لهذا مدة ، ولهذا مدة..

هذا ما قاله ابراهيم عليه السلام لله تعالى حسبما تنص التوراة فإن فيها « وقال إبراهيم لله : ليت إسماعيل يعيش أمامك فقال الله وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جداً . اثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة »

وقد حمل بركة اسحق بالتوراة موسى عليه السلام . وحمل بركة اسماعيل بالقرآن محمد عليه السلام وبيان ذلك :

١ - أن اسماعيل عليه السلام سكن مع أمه فى برية فاران وهى أرض مكة المكرمة ففى الأصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين : « ونادى ملاك الله

هاجر من السماء وقال لها : مالك ياهاجر . لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومى احملى الغلام وشدى يدك به . لأنى سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينيها فابصرت بئر ماء . فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام . وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى البرية . وكان ينمو رامى قوس . وسكن فى برية فاران . وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر »

هذا هو مكان سكنى اسماعيل المبارك فيه بالملك والنبوة .

٢ - وقد قسم موسى عليه السلام بركة الله بالملك والنبوة على ثلاثة أماكن :

(أ) سيناء : مكان نزول التوراة .

(ب) وساعير : مكان تفسير التوراة من علماء وأنبياء بنى إسرائيل

(جـ) وفاران : مكان نزول القرآن .

فقال فى الأصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى اسرائيل قبل موته ! فقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس . وعن يمينه نار شريعة لهم . فأحب الشعب . جميع قديسيه فى يدك وهم جالسون عند قدمك ، يتقبلون من أقوالك »

وفى هذا النص بيان كثرة أصحاب محمد ﷺ فقد قال . « وأتى من ربوات القدس » وفى بعض التراجم : وأتى مع آلاف من جيش المقدسين الطاهرين الذين اختارتهم العناية الإلهية لهذا الغرض المقدس . وفى هذا النص مدح لأصحاب رسول الله ﷺ فقد قال : « جميع قديسيه فى يدك وهم جالسون عند قدمك . يتقبلون من أقوالك » أى أن الصحابة الأجلاء فى يد رسول الله ﷺ لا يخرجون عن طاعته . وهم جالسون عند قدمه : كناية عن التواضع بين يديه ، ويتقبلون من أقواله : أى لا يشرعون لهم من تلقاء أنفسهم .

٣ - وقد نبه يعقوب الذى هو اسرائيل بنيه حال موته على مجىء نبى السلام الذى متى جاء فإنه سيأخذ منهم الملك والنبوة . بقوله : « لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجليه ، حتى يأتى شيلون ، وله يكون خضوع شعوب » [تكوين ٤٩ : ١٠] والمعنى : لا يزول الملك من بنى اسرائيل . وعبر بيهوذا عن بنى اسرائيل بأسرهم . وستظل التوراة شريعة تحت نفوذ الملوك من بنى اسرائيل ، حتى يأتى « شيلون » نبى الإسلام ، فيتسلم منهم النبوة والملك وتخضع له أمم

الأرض .

وليس شيلون إلا محمد ﷺ لأنه من اسماعيل المبارك فيه .

٤ - ولما كان موسى عليه السلام هو والمشايخ السبعون على جبل طور سيناء لتلقى شريعة التوراة من الله ، خاف بنو اسرئيل من الدخان والنار اللذان أحاطا بهما وهما فوق الجبل ، وقالوا لموسى عليه السلام : اذا أراد الله أن يكلمنا مرة أخرى ويسمعنا صوته . فليكن عن طريق بشر ، ليكن عن طريقك يا موسى . ونحن نسمع ونطيع فرد موسى كلامهم الى الله . فقال الله : أحسنوا فى ما قالوا . ولسوف أرسل لهم نبياً مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه . أى سيكون نبياً أمياً لايقرأ ولا يكتب .

وهذا النبى الذى سيأتى مماثلاً لموسى هو محمد عليه السلام . لأن الله قد بارك فى اسماعيل - عليه السلام - وجعل له ملكاً ونبوة ، كملك بنى اسحق ونبوتهم فان لاسحق بركة كبركة اسماعيل . وحملها من بنى اسحق كلهم : بنو اسرائيل . وبدأت من بنى اسرائيل من موسى عليه السلام فانه صاحب الشريعة . وكان رئيساً مطاعاً ، وجاهد فى سبيل الله وأمر أتباعه بدخول الأرض المقدسة .

ففى الأصحاح الثامن عشر من سفر التثنية :

« يقيم لك الرب الهك نبياً من وسطك من اخوتك . مثلى . له تسمعون . حسب كل ما طلبت من الرب الهك فى حوريب يوم الاجتماع قائلاً : لا أعود أسمع صوت الرب الهى ولا أرى هذه النار العظيمة أيضاً لئلا أموت ، قال لى الرب : قد أحسنوا فى ما تكلموا . أقيم لهم نبياً من وسط اخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه . فيكلمهم بكل ما أوصيه به . ويكون أن الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى ، أنا أطالبه ، وأما النبى الذى يُطغى فيتكلم باسمى كلاماً لم أوصه أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى . فيموت ذلك النبى .

وان قلت فى قلبك : كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب ؟

فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر ، فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، بل بطغيان تكلم به النبى . فلا تخف منه »

[تث ١٨ : ١٥ - ٢٢]

كيفية انطباق النبوة على محمد ﷺ

أولاً : ان من أوصاف هذا النبى المنتظر : أن يكون نبياً . لا الهاً . وقد

زعم النصارى : أن أوصاف النبى الذى تتحدث عنه هذه النبوءة تنطبق على عيسى عليه السلام . وزعمهم باطل ؛ لأن بعضهم يقول : ان عيسى اله وبعضهم يقول : هو الاله الخالق للعالم . فالكاثوليك والبروتستانت يقولون ان عيسى هو الاله الثانى والله هو الاله الأول والروح القدس هو الاله الثالث . والأرثوذكس يقولون : أن عيسى هو الله رب العالمين وقد ظهر للناس فى صورة بشر ، وعن مذهب الكاثوليك والبروتستانت يقول تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة ﴾ وعن مذهب الأرثوذكس يقول تعالى . ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ﴾ ...

وهذا مع ما فى التوراة وما فى الإنجيل من أن الله تعالى هو الخالق للعالم وحده وأنه ليس كمثله شيء . ففى الأصحاح السادس من سفر التثنية : « اسمع يا اسرائيل الرب الهنا رب واحد » وفى الأصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية « ليس مثل الله » وفى الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا . فسر يوحنا أبناء الله بمعنى المؤمنين بالله فى قوله « وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله . أى المؤمنون باسمه » وقال : ان الله لم يره أحد وحيث أن عيسى قد رآه الناس ، فانه بحكم الإنجيل لا يكون هو الله ، لقوله : « الله لم يره أحد قط »

وفى نفس الأصحاح يورد يوحنا كاتب الإنجيل : شهادة يحيى عليه السلام — الذى هو يوحنا المعمدان — بأنه ليس هو النبى الذى أخبر عن مجيئه موسى فى سفر التثنية لينسخ شريعته . وقد كان يوحنا معاصراً لعيسى عليه السلام وكان وهو يدعوان اليهود لاقتراب ملكوت السموات . مما يدل على أن النبى المنتظر يكون آتياً من بعدهما . فقد حكى متى ما نصه

(أ) « من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا ، لأنه قد اقترب ملكوت السموات » [متى ٤ : ١٧]

(ب) « وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية قائلاً : توبوا قد اقترب ملكوت السموات » [متى ٣ : ١ — ٢]

ثانياً ومن أوصاف النبى المنتظر : أن يكون من إخوة بنى اسرائيل . ولو كان هذا النبى من بنى اسرائيل ما كان يقول « من اخوتهم » وكان يقول : منكم وحيث أن :

(أ) لاسماعيل بركة

(ب) وأنه أخ لاسحق الذى هو جدهم

فأن المراد من اخوتهم : أنه سيأتى من آل إسماعيل لأنَّ له بركة . ففى الأصحاح السادس عشر من سفر التكوين : « وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه اسماعيل ، لأن الرب قد سمع لمذلتك ، وانه يكون انساناً وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع اخوته يسكن »

ثالثاً : ومن أوصافه المماثلة لموسى فى الحروب والانتصار على الأعداء . وقد نصت التوراة على أنه لن يظهر فى بنى اسرائيل مثل موسى وعليه . فان الآتى يكون من غير جنسهم . وحيث لاسماعيل بركة ، فانه يكون من جنسه . ففى الأصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية

« ولم يقم بعد نبى فى اسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجهاً لوجه فى جميع الآيات والعجائب التى أرسله الرب ليعملها فى أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وكل أرضه . وفى كل اليد الشديدة وكل المخاوف العظيمة التى صنعها موسى أمام أعين جميع اسرائيل »

رابعاً : ومن أوصافه : أن يسمع له بنو اسرائيل ويطيعون حتى ولو نسخ شريعة

موسى . ولم ينسخ شريعة موسى إلا محمد عليه السلام . أما الأنبياء من موسى الى محمد – عليهما السلام – فقد كانوا على شريعة موسى حتى يسوع المسيح فانهم كتبوا أنه كان على دين موسى لقوله : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس » [متى ٥ ١٧] وقد صرح القرآن بذلك فى قوله تعالى ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** ﴾ فقد بين أنه موافق على التوراة التى هى أمامه فى عصره ولقد كان الربانيون والأحبار يفسرون التوراة ويضيفون على التفسير من عندهم تشريعات لم يأذن بها الله . مثل تحريم الأكل بأيد غير مغسولة . وأما عيسى عليه السلام فإنه كان مفسراً لها ولم يكن محرماً ومحللاً من تلقاء نفسه كما كان يفعل الربانيون والأحبار بل أنه ألغى تشديداتهم وأباح محرماتهم من تلقاء أنفسهم كما قال تعالى عنه : ﴿ ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ﴾

وأما قوله تعالى : ﴿ **وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه** ﴾ فإن معناه وليحكموا بما فيه من ايجاب العمل بأحكام التوراة . فإن فى الإنجيل : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس » وفيه فى الأصحاح الثالث والعشرين من إنجيل متى قول عيسى عليه السلام : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون . فكل

ما قالوا لكم أن تحفظوه ، فاحفظوه وافعلوه ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا . لأنهم يقولون ولا يفعلون »

خامساً : ومن أوصافه : أن يكون نبياً أمياً غير قارىء ولا كاتب . وهذا معنى قوله : « وأجعل كلامي في فمه »

سادساً : ومن أوصافه : أن يكون أميناً على الوحى الالهى . وهذا مستفاد من قوله : « فيكلمهم بكل ما أوصيه به »

سابعاً : ومن أوصافه : أن الله ينصره على مخالفيه ، وهذا مستفاد من قوله : « ويكون أن الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى . أنا أطالبه » أى الله يقول أنا أنتقم من مخالفيه .

ثامناً : ومن أوصافه : أن لايقتل . وأن من يكذب ويدعى النبوة ويزعم أنه هو المراد من هذه النبوءة المذكورة فى سفر التثنية ، أو يدعو الى غير الله ، فانه يقتل . وهذا مستفاد من قوله « وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاماً لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى » أى فيكون جزاؤه القتل .

تاسعاً : وان قال متبع شريعة موسى : كيف نميز الصادق من الكاذب ؟

أى اذا ظهر من يقول انى أنا هو ذلك النبى . فكيف نعرف أنه صادق ؟

فانه أعطى علامة للناس ، ليعرفوا الصادق من الكاذب . وهى : أنه اذا ظهر وأخبر عن غيب ، ووقع الغيب كما قال . فانه يكون صادقاً فى دعوى النبوة .

وهذا مستفاد من قوله : « وان قلت فى قلبك : كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب ؟ » وهذا هو السؤال . والإجابة هى : « فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر ، فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، بل بطغيان تكلم به النبى ، فلا تخف منه »

وقد ظهر مما تقدم : أن محمدا ﷺ مكتوب عنه فى التوراة فى الأصحاح الثامن عشر من سفر التثنية مع المقارنة بالنصوص الأخرى الدالة على بركة اسماعيل عليه السلام ومكتوب عنه فى الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا مع نصوص الأناجيل .

وظهر أن التوراة قد وصفت أصحابه بأنهم قديسون طاهرون ، وأنهم لا يعصون رسول الله ولا يستكبرون عن طاعته . ففى الأصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « وأتى من ربوات القدس ، وعن يمينه نار شريعة لهم . فأحب

الشعب . جميع قديسيه فى يدك . وهم جالسون عند قدمك ، يتقبلون من أقوالك »
[تث ٣٣ : ٢ - ٣]

تم الكلام فى الأمر الأول

وأما الأمر الثانى : وهو أن غير الفريسيين من علماء بنى إسرائيل يقولون بأن الله قد خلق الإنسان حراً فهذا هو الكلام فيه :

ونكتفى باليسير من « دلالة الحائرين » لموسى بن ميمون :

١ - مسبب الأسباب ومنشئها من العدم هو الله تعالى . فإذا حدث شيء يبحث اليهود عن سبب حدوثه . ويردون السبب إلى المسبب المباشر للفعل ، وقد يردونه إلى الله تعالى على أنه موجد الأشياء . فيقولون : المطر أنبت الزرع ، لأن المطر سبب مباشر ، ويقولون أيضاً : الله أنبت الزرع ، لأن الله هو الخالق للمطر .

٢ - إذا تحركت غريزة الحيوان إلى شيء . يقولون : الحيوان فعل هذا الشيء بطبعه ، أو يقولون : الله أمر الحيوان أن يفعل ذلك الشيء . على معنى أنه هو الموجد لغريزة الحيوان ، وهو يعلم أن الغريزة ستؤدى بالحيوان إلى فعل ذلك الشيء ومن ذلك « فأمر الرب الحوت » [يونان ٢ : ١١] أى الله هو الذى أثار له تلك الإرادة ، لا أنّه جعله نبياً وأوحى إليه .

٣ - إذا لم يفطنوا إلى السبب المباشر ، أو كان الحادث فوق مقدور البشر ينسبون الحادث إلى الله . لأنه وجد بدون أسباب عادية .

٤ - من أزال عموداً من تحت خشبة ، فسقطت بثقلها الطبيعى يقولون عن مزيل العمود : إنه حرك الخشبة . لأن إزالة العمود تسببت فى تحريك الخشبة وسقوطها . ومن أطفأ سراجاً . يقولون عن مطفىء السراج إنه أحدث الظلام ، لأن الظلام نشأ عن الإطفاء . لكن يعبرون عن الفعل الأول وهو إطفاء السراج مثلاً بأنه المقصود بالذات ، ويعبرون عن الفعل الثانى وهو إحداث الظلام بأنه المقصود بالعَرَض . ويقولون : إن إطفاء السراج هو فعل لشىء موجود ، وأن إحداث الظلام هو فعل لشىء معدوم .

٥ - الشرور فى العالم ناتجة عن فعل المعدوم ، وليس عن فعل الموجود . فالإنسان إذا اعتنى بصحته ، أعدم المرض ، وإذا لم يعتن أوجد المرض ، والمرض عدم . وموت الإنسان عدم ، والموت شر . فإذن العدم هو الشر .

يقول موسى بن ميمون فى دلالة الحائرين : « إن الله عز وجل لا يطلق عليه أنه يفعل شراً بالذات بوجه - أعنى : أنه تعالى يقصد قصداً أولياً أن يفعل الشر .

هذا لا يصح – بل أفعاله تعالى كلها خير محض ، لأنه لا يفعل إلا وجوداً ، وكل وجود خير ، والشرور كلها : إعدام »

ويقول موسى بن ميمون : « هذه الشرور العظيمة الواقعة بين أشخاص الإنسان من بعضهم لبعض بحسب الأغراض والشهوات والآراء والإعتقادات ، كلها أيضاً تابعة لعدم ، لأنها كلها لازمة عن الجهل ، أعنى عن عدم العلم »

٦ – يقولون : إن الخير فى العالم أكثر من الشر . وإن وجود الإنسان ، خير عظيم للإنسان ، وإحسان من الله إليه بما خصه به وكمله ، ومعظم الشرور الواقعة بالناس هى من الناس الناقصين . فقد قال سليمان عليه السلام : « سفه الإنسان يفسد طريقه » [أمثال ١٩ : ٣]

٧ – إنَّ كل شر يصيب الإنسان ، يرجع إلى أحد ثلاثة أنواع : النوع الأول من الشرور : هو ما يصيب الإنسان من جهة طبيعة الكون والفساد ، كولادة إنسان أعمى . وهذا النوع من الشرور قليل جداً . والنوع الثانى من الشرور : هو ما يصيب الناس من بعضهم لبعض ، كتسلط بعضهم على بعض . وهذا النوع من الشرور أكثر من شرور النوع الأول ، وهو أيضاً ليس بكثير فى جميع الأرض . والنوع الثالث من الشرور : هو مايصيب الشخص من فعله بنفسه ، وهذا هو الأكثر ، ومن شرور هذا النوع يصيح الناس كلهم . وعن هذا جاء فى سفر الجامعة : « إن الله صنع البشر مستقيمين أما هم فتكلبوا مباحث كثيرة » [جامعة ٧ : ٣٠]

وأما الأمر الثالث : وهو هل الديانة النصرانية ديانة مستقلة عن ديانة اليهود ؟ فهذا هو الكلام فيه :

الملة النصرانية التى دعا إليها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام شيء . والملة النصرانية التى دعا إليها « بولس » ورفاقه شيء آخر . فالتى دعا إليها المسيح ، هى والملة اليهودية : شيء واحد . والتى دعا إليها « بولس » وَرِفاقه هى المنتشرة فى العالم . والتى دعا إليها المسيح هى الصحيحة ، والتى دعا إليها بولس ورِفاقه هى الباطلة .

ونحن المسلمين لا نعتقد بنصرانية « بولس » وإنما نعتقد بصحة تعاليم المسيح عليه السلام . وتعاليمه هى ١ – أنه مصدق للتوراة التى كانت فى زمانه حاضرة بين يديه . ٢ – وأنه مبشر برسول الله محمد ﷺ وعلى ذلك : فإذا كتبنا مبحثاً مستقلاً عن الملة النصرانية . فإن كتابتنا هى بحسب المنتشر فى العالم ، والمشهور

بين أصحاب الملل . فإن المنتشر والمشهور هو أن الملة النصرانية ديانة مستقلة عن ديانة موسى عليه السلام . والمنتشر والمشهور باطل :

١ - أما أنَّ عيسى عليه السلام مصدق للتوراة . فالدليل عليه نصوص من الأناجيل . منها :

أ - « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس ، أو الأنبياء » [متى ٥ : ١٧] أي ما ألغى التوراة ، ولا كتب أنبياء بنى إسرائيل مثل كتب : إرمياء وأشعْياء وحبقّوق وحجَّى ، وغيرهم .

ب - وقال لتلاميذه : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون . فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه . ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا . لأنهم يقولون ولا يفعلون » [متى ٢٣ : ١ - ٣] فقد أوصى بالسماع من بنى إسرائيل ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به .

ت - وروى برنابا عن المسيح ، كما روى متى . روى قول المسيح : « أتظنون أنى جئت لأبطل الشريعة والأنبياء ؟ الحق أقول لكم : لعمر الله إنى لم آت لأبطلها ولكن لأحفظها . لأن كل نبى حفظ شريعة الله ، وكل ما تكلم الله به على لسان الأنبياء الآخرين . لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته ، لا يمكن أن يكون مرضيا لله : من يخالف أقل وصاياه . ولكنه يكون الأصغر فى ملكوت الله . بل لا يكون له نصيب هناك . وأقول لكم أيضاً : إنه لا يمكن مخالفة حرف واحد من شريعة الله ، إلا باجتراح أكبر الآثام » [برنابا ٣٨ : ٢ - ٨]

ث - وعلماء الفَرِّيسيِّين قد شددوا على بنى إسرائيل . فحرموا عليهم بعض ما أحله لهم الله عز وجل . كتحريم الأكل بأيدى غير مغسولة ، وكتحريم عمل الخير فى يوم السبت . فنطق المسيح بأن تحريم أى شيء لابد من أن يستند على نص فى التوراة . وحيث أن نصوص بالتوراة لا تحرم الأكل بأيدى غير مغسولة ، ولاتحرم عمل الخير فى يوم السبت . فإذاً تكون فتاوى العلماء المحرمة باطلة . ولما كان الأصل هو الحل ؛ فإن المسيح بإلغائه ما حرمه العلماء من تلقاء أنفسهم يكون قد أحل لبنى إسرائيل ما حرمه العلماء .

وهذه نصوص يتبين منها : ١ - أن المسيح ما دعا إلى إلغاء شريعة موسى .

٢ - وإنما دعا إلى إلغاء « التقاليد » التى طمست الحق والرحمة فى شريعة موسى :

أ - قال بَرنابا : « ودعا أحد المتضلعين من الشريعة : يسوع للعشاء ، ليجربه . فجاء يسوع إلى هناك مع تلاميذه ، وكثيرون من الكتبة انتظروه فى البيت ،

ليجربوه . فجلس التلاميذ إلى المائدة دون أن يغسلوا أيديهم . فدعا الكتبة يسوع قائلين : لماذا لا يحفظ تلاميذك تقاليد شيوخنا بعدم غسل أيديهم ، قبل أن يأكلوا خبزاً ؟ أجاب يسوع : وأنا أسألكم لأى سبب أبطلتم شريعة الله ، لتحفظوا تقاليدكم ؟ تقولون لأولاد الآباء الفقراء : قدموا نذوراً للهيكل . وهم إنما يجعلون نذوراً من النذر الذى يجب أن يعولوا به آباءهم . وإذا أحب آباؤهم أن يأخذوا نقوداً ، يصرخ الأبناء : إن هذه النقود نذر لله . فيصيب الآباء بسبب ذلك ضيق .

أيها الكتبة الكذابون المراؤون . أيستعمل الله هذه النقود ؟ كلا ثم كلا . لأن الله لا يأكل . كما يقول بواسطة عبده داود النبى : « هل آكل لحم الثيران ، وأشرب دم الغنم ؟ أعطنى ذبيحة الحمد ، وقدم لى نذورك . لأنى إن جعت لا أطلب منك شيئاً . لأن كل الأشياء فى يدى ، وعندى وفرة الجنة »

أيها المراؤون . إنكم إنما تفعلون ذلك لتملأوا كيسكم ... الحق أقول لكم : إن أكل الخبز بأيد غير نظيفة لا ينجس إنساناً .لأن ما يدخل الإنسان لا ينجس الإنسان ، بل الذى يخرج من الإنسان ينجس الإنسان . فقال حينئذ أحد الكتبة : إن أكلت لحم الخنزير أو لحوماً أخرى نجسة ، أفلا تنجس هذه ضميرى ؟ أجاب يسوع : إن العصيان لا يدخل الإنسان ، بل يخرج من الإنسان ، من قلبه ، ولذلك يكون نجساً متى أكل طعاماً محرماً » [برنابا ٣٢]

ب - قال متى : « حينئذ جاء إلى يسوع كتبة وفريسيون ، الذين من أورشليم قائلين : لماذا يتعدى تلاميذك تقليد الشيوخ . فإنهم لا يغسلون أيديهم ، حينما يأكلون خبزاً ؟ فأجاب وقال لهم : وأنتم أيضاً لماذا تتعدون وصية الله بسبب تقليدكم ؟ فإن الله أوصى قائلاً : أكرم أباك وأمك . ومن يشتم أباً أو أماً ، فليمت موتاً . وأما أنتم فتقولون : من قال لأبيه أو أمه قربان هو الذى تنتفع به منى . فلا يكرم أباه ، أو أمه . فقد أبطلتم وصية الله بسبب تقليدكم .. إن كل ما يدخل الفم يمضى إلى الجوف ويندفع إلى المخرج . وأما ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر . وذاك ينجس الإنسان . لأن من القلب تخرج أفكار شريرة : قتل . زنى . فسق . سرقة . شهادة زور . تجديف . هذه هى التى تنجس الإنسان وأما الأكل بأيد غير مغسولة ، فلا ينجس الإنسان » [متى ١٥]

٢ - **وأما تبشير المسيح بمحمد نبى الإسلام** . فهو واضح من الأناجيل الأربعة المقدسة عند النصارى . وإذا فهموا مدلول البشارات ، وجب عليهم ترك الملة النصرانية إلى مِلّة الإسلام ...

الفصل الثالث
فى
أصل تحريف الملَّة النصرانية

فى التوراة نبوءات كثيرة عن مجيء نبى واحد فقط ، مماثل لموسى عليه السلام هو محمد ﷺ وقد أرسل الله تعالى النَّبيين الكريمَيْن يحيى وعيسى – عليهما السلام – ليفسرا لليهود وللأمم نبوءات التوراة عن النبى المنتظر ، الذى هو محمد ﷺ وبعدما فسرا تفسيراً حسناً ، وتبين لبنى إسرائيل صدق التفسير . فكروا فى التشويش واللغو . ليشككوا الناس فى نبوءة محمد إذا ما ظهر . والوسائل التى ابتدعوها فى التشويش واللغو : هى : أنهم عمدوا إلى كل نص أُثر عن يحيى ، أَوْ أُثر عن عيسى فى التبشير بمحمد ﷺ وقالوا فيه : إنه يدل على ظهور عيسى نفسه قبل يوم القيامة ، لا على محمد عليه السلام . وكتبوا هذا فى سفر أعمال الرسل .

فأصل تحريف الملة النصرانية : هو أخذ كل نبوءات التوراة وأسفار الأنبياء والأناجيل التى هى لمحمد عليه السلام ووضعهم على عيسى عليه السلام لئلا يتبعوا محمداً إذا جاء .

ثم بعد ذلك صرح بطرس بإلغاء التوراة . وصرح بولس بعقيدة الجبر .

والذى ينقد النصرانية ينبغى أن يكون نقده على الأسس التالية :

أولاً : يذكر نبوءات التوراة عن النبى المنتظر . ورأى عيسى نفسه فيها . ثم يذكر محاولات النصارى فى تطبيقها على عيسى عليه السلام .

ثانياً : يذكر نص كلام عيسى عليه السلام فى أنه مصدق للتوراة . ثم يذكر كلام بطرس ورفاقه فى أن التوراة قد نُسخت أحكامها بنزول « ملاءة بطرس » – وهى مذكورة فى سفر الأعمال –

ثالثاً : يذكر عبارات التوراة على حرية الإنسان ، ثم يذكر تفسير عيسى لها . ورد بولس لتفسيره

ولقد ذكرنا نبوءات من نبوءات التوراة فى هذا الكتاب . وسنذكر الآن محاولات للنصارى فى تطبيقها كلها على عيسى عليه السلام مع أنها ليست له . وذكرنا نص كلام عيسى عليه السلام فى أنه مصدق للتوراة . وسنذكر الآن أيضاً

رد بولس على عيسى عليه السلام . مع العلم بأن كل النبوءات مذكورة ومشروحة فى « البشارة » و « أقاليم النصارى » وهذا سيكون فى مبحثين : **الأول** : فى محاولات النصارى لجعل عيسى هو المسيح الرئيس . **والثانى** : فى رد بولس على المسيح فى القضاء والقدر .

والغرض من ذكر هذا : هو أن النصارى إذا أنكروا محمداً بحجة الجبر . هل تنجيهم حجتهم من عذاب الله ؟ ولو قال اليهود : إن الله قدر علينا أرزاقنا وأعمالنا فى اللوح المحفوظ . هل ينجيهم قولهم بالجبر من عذاب الله ؟ لا . لا . فالله قد خلق الإنسان حراً .

المبحث الأول
فى
محاولات النصارى لجعل عيسى
هو المسيح الذى هو الماسِيًّا

تمهيد :

فى الأصحاح الرابع من إنجيل يوحنا : فقالت له المرأة : إنى أعلمُ أن المَسِّيا ، الذى يُدعى المسيح سيأتى . ومتى جاء فهو يُعلن لنا كل شىء »[1]

The woman said I know that messiah (called christ) is coming. When he comes; he will explain everything to us.

وهذا النص يدل على أن النبى المنتظر ، الملقب بلقب « المَسِيًّا » لم يكن قد ظهر فى بنى إسرائيل أو فى بنى إسماعيل ، قبل المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام . فمن هو المَسِيًّا ؟

اعلم : أن موسى النبى عليه السلام فى التوراة ، نبه على نبى سيأتى من بعده ؛ ليقيم الدين ، كما أقامه هو للناس . وذكر تسعة أوصاف تدل كلها عليه وهى :

١ - نبى .

٢ - من بين إخوة بنى إسرائيل . أى من بنى إسماعيل . وذلك لأن الله استجاب دعاء ابراهيم فى إسماعيل بأن يكون نسله سائراً أمامه ؛ فى دعوة الناس لعبادته . فقد قال لإبراهيم : « سر أمامى وكن كاملاً » [تك ١٧ : ١] « وقال ابراهيم لله : ليت إسماعيل يعيش أمامك . فقال الله : واما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه » [تك ١٧ : ١٨ -]

٣ - مثل موسى . فى الحروب والانتصار على الأعداء والرئاسة والملك [تث ٣٤ : ١٠ - ١٢] وقد نصت التوراة على أن هذا النبى المماثل لموسى ، لن يظهر ... ائيل . وإذ إسماعيل مبارك فيه ، فإنه يكون من ذريته [تث ٣٤ : ١٠]

---

(١) الإنجيل كتاب الحياة ترجمة تفسيرية عربى انجليزى سنة ١٩٨٩م

٤ – أمي لايقرأ ولا يكتب : لقوله : « وأجعل كلامى فى فمه »
٥ – أمين على الوحى . لايزيد فيه ولا ينقص منه .
٦ – ينسخ شريعة موسى ويكون رئيساً وملكاً على بنى إسرائيل . لقوله : « له تسمعون »

٧ – ينصره الله على أعدائه . لقوله : « ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى . أنا أطالبه » أى ينتقم الله من أعدائه على يديه وعلى أيدى أتباعه . وقد ترجمها بطرس بقوله : « ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبى تُباد من الشعب » [أ ع ٣ : ٢٣] .

٨ – لا يُقتل بيد أعدائه . لقوله فى النص : إن النبى الذى يكذب على الله ، أو يدعو إلى إله غير الله ، ويزعم أنه هو المراد من هذا النص ، يقتله الله .

٩ – يتحدث عن أمور تحدث فى مستقبل الأيام ، وتحدث كما قال : لقوله : « فما تكلم به النبى باسم الرب ، ولم يحدث ولم يصر ، فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، بل بطغيان تكلم به النبى . فلا تخف منه »

وهذا هو نص التوراة من ترجمة اليسوعيين : « يُقيم لك الرب إلهك نبياً من بينكم من إخوتك . مثلى . له تسمعون . جرياً على كل ما سألته الرب إلهك فى حوريب يوم الاجتماع قائلاً : لا عدت أسمع صوت الرب إلهى ، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضاً ؛ لئلاً أموت .

فقال لى الرب : قد أحسنوا فيما قالوا . أُقيم لهم نبياً من إخوتهم مثلك ، وأُلقى كلامى فى فيه . فيخاطبهم بجميع ما آمره به وأى إنسان لم يطع كلامى الذى يتكلم به باسمى ؛ فإنى أحاسبه عليه . وأى نبى تجبر فقال باسمى قولاً ، لم آمره أن يقوله ، أو تنبأ باسم آلهة أخرى ؛ فليقتل ذلك النبى .

فإن قلت فى نفسك : كيف يُعرف القول الذى لم يقله الرب ؟
فإن تكلم النبى باسم الرب ، ولم يتم كلامه ، ولم يقع ، فذلك الكلام لم يتكلم به الرب ، بل لتجبره تكلم به النبى . فلا تخافوه » [تثنية ١٨ : ١٥ - ٢٢] .

ويُطلق اليهود والنصارى على هذا النبى الآتى ؛ لقب « المسيا » المنتظر . أو « المسيح » الرئيس . والدليل على أن النص على النبى الآتى هو الذى يدل على المسيا الذى تفسيره المسيح : هو إجماع اليهود والنصارى على ذلك . ففى تفسير الكتاب المقدس . يقولون فى قول موسى : « يُقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون ... الخ » يقولون ما نصه : « النبى الآتى تثنية ١٨ : ١٥ - ٢٢ يعلن موسى إعلاناً نبوياً مِسيانياً عن النبى الذى سيأتى ، الذى سيخلفه فى وظيفته كنبى » فقد بينوا : أن النبى الآتى من بعد موسى - عليه السلام - هو المسيا .

معنى كلمة المسيا :

كلمة المسيا . أصلها فى العبرانية « ها ماشياه » وفى الآرامية « مشيحا » وفى اليونانية « المسيح » وفى اللغات التى لا تنطق الحاء ، تنطق « مسيا » ومعناها المصطفى من الله ، لأداء رسالة مقدسة . وكان معناها الحرفى : هو أن النبى يأخذ قنينة دهن مقدس ، ويمسح النبى الذى سيخلفه ، أو العالم ، أو الملك ؛ فتصير ذاته مقدسة لا يصح لأحد أن يعتدى عليها بسوء . ثم صارت كلمة « المسيح » تطلق على المصطفى من الله لأداء رسالة مقدسة ، ولو لم يمسح بدهن مقدس .

وكل نبى فى بنى إسرائيل كان يُطلق عليه لقب « مسيح » أى مسيا . ولكن النبى المنتظر ، أخذ فى عُرفهم ولغتهم لقب « المسيح » أى « المسيا » لا لقب « مسيح » أى « مسيا » لأنه معين ومعروف ومميز عن سائر النبيين .

مسح الأنبياء والعلماء والملوك :

« أليس لأن الرب قد مسحك » [١ صم ١٠ : ١]

« ومسحوا داود ملكا » [٢ صم ٥ : ٣]
« مسحه الله بالروح القدس » [أع ١٠ : ٣٨] أى عينه واختاره واصطفاه ولم يمسحه بالدهن .
« مسحتك ملكاً » [٢ مل ٩ : ٣]
« وأبشالوم الذى مسحناه » [٢ صم ١٩ : ١٠]
« أما أنا فقد مسحت ملكى » [مزمور ٢ : ٦] الملك ههنا : هو محمد ﷺ
« عبدى بدهن قدسى ، مسحته » [مز ٨٩ : ٢٠]
« القدوس يسوع ، الذى مسحته » [أع ٤ : ٢٧]
« امسح لى الذى أقول لك » [اصم ١٦ : ٣]
« فلكم مسحة من القدوس » [١يو ٢ : ٢٠]
« إن كان الكاهن [أى العالم من بنى إسرائيل] الممسوح » [لا ٤ : ٣]
« هكذا يقول الرب لمسيحه » [إش ٤٥ : ١] والمسيح ههنا هو كوروش الملك الفارسى .
« لا تمسوا مسحائى » [أى ١٦ : ٢٢ ومز ١٠٥ : ١٥]
« سيقوم مسحاء كذبة » [متى ٢٤ : ٢٤ مر ١٣ : ٢٢]

المسيَّا الرئيس هو المسيح الرئيس :

فى الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا :
« وجدنا المسيا . أى المسيح » [يو ١ : ٤١]
we have found the messiah that is the christ

المسيح عيسى بن مريم عليه السلام .

ومما تقدم يُعلم أن عيسى عليه السلام يُطلق عليه لقب « مسيح » مثل طالوت وداود وأبشالوم ابنه وكوروش وعلماء بنى إسرائيل . لكن هل هو « المسيح المنتظر » المفسر بالمسيا الرئيس ؟

يطلق اليهود لقب « مسيح » على عيسى عليه السلام لأنه من علماء بنى

إسرائيل ، ويطلق النصارى لقب « مسيح » على عيسى عليه السلام لأنه ا – عالم ب – ونبى، ونحن المسلمين نطلق لقب « مسيح » على عيسى عليه السلام لأنه ا – عالم ب – ونبى . ذلك لأنه ليس هو « المسيح » المنتظر المماثل لموسى ، الذى من أوصافه أن يسمع له بنو إسرائيل ويطيعون فى كل ما يكلمهم به .

نبوءات التوراة عن المسيَّا :

ونبوءات التوراة كلها تدل على نبى واحد . لا على نبيين . وكل المسلمين بلا استثناء يقولون : إن هذا النبى الواحد هو محمد ﷺ ومن قال منهم بأن عيسى عليه السلام بشرت به التوراة ، فإنه لم يذكر نبوءة واحدة على قوله . وهو قال ما قال سماعاً عن الضالين من النصارى . إذ ليس فى التوراة إلا ما يلى :

١ – النص على بركة إسماعيل ، وسكناه فى « فاران » [تك ١٧ و ٢١]
٢ – النص على زوال الملك من اليهود ، ونسخ الشريعة على يد شيلون [تك ٤٩ : ١٠] وعيسى ما ملك وما نسخ
٣ – النص على النبى الأمى [تث ١٨ : ١٥ – ٢٢]
٤ – النص على تقسيم البركات بين سيناء وساعير وفاران [تث ٣٣ : ١ – ٣]
٥ – النص على إغاظة الله لليهود على يد أمة أمية غبية جاهلة [تت ٣٢ : ٢٦]

ليس غير هذا فى الأسفار الخمسة . وكل هذا يدل على محمد ﷺ فأين هى النبوءات التى تدل على عيسى عليه السلام ؟ ليس ولا واحدة . وإذا كان الأمر كما ذكرنا . فهل يكون عيسى هو النبى المنتظر ؟ أين هى النبوءات التى تدل عليه ؟

إن عيسى عليه السلام نبى معظم قد أرسله الله فى حينه ليبشر بمحمد ﷺ هو ويحيى عليه السلام المعروف عندهم بيوحنا المعْمَدان . وما أحدهما هو المسيح الرئيس . وكل واحد منهما « مسيح » غير رئيس . إذ لم يكن أى واحد منهما ملكاً على شعب إسرائيل .

لسان الرسل :

وقد قال الله تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، ليبين لهم** ﴾ ومن لسان بنى إسرائيل :

أولاً : إطلاق لفظ « مسيح » على ا – النبى ب – والعالم ج – والملك .

وكانوا يطلقون لفظ « المسيح » على النبى الذى وعد به موسى ، ليخدعوا العالَم بأنه سيظهر من جنسهم . فبين لهم عيسى عليه السلام أن هذا « المسيح » المنتظر

بحسب لغتكم سيأتى من بنى إسماعيل عليه السلام . واستدل على قوله بنصوص التوراة عن بركة إسماعيل .

ثانياً : إطلاق لفظ « ابن الله » على كل يهودى ، سواء كان صالحاً أو فاسداً لما جاء فى التوراة : « أنتم أولاد للرب إلهكم » [تث ١٤ : ١] وقد عبَّر اليهود عن النبى المنتظر بلقب « ابن الله » كما يلقبون كل يهودى فيهم . على معنى : المؤمنون بالله والمنتسبون إلى شريعته . فابن الله عندهم لفظ على المجاز بمعنى القرب من الله . وقد أطلقوه على إسرائيل ، ففى سفر الخروج قالوا عن الله تعالى أنه قال : « إسرائيل ابنى البكر » [خر ٤ : ٢٤] وقالوا : « ليس مثل الله » [تث ٣٣ : ٢٦] وأنه لم يلد ولم يولد .

وأعطوا للنبى المنتظر لقب « ابن الله » فى المزمور الثانى لداود عليه السلام ليوهموا العالم بأنه سيكون منهم . ففى هذا المزمور : « إنى أُخبر من جهة قضاء الرب . قال لى : أنت ابنى . أنا اليوم ولدتك » [مز ٢ : ٧]

ثالثاً : قالوا لا جسم لله وذلك لأنه لا مثل له . ونفوا المكان عنه . بنصوص هى مُحكمة عندهم ثم قالوا : أن الله مستوى على العرش . على معنى – عندهم – هو أنه المالك وحده للعالم وليس معه من شريك فى الملك . وعبروا عن النبى المنتظر بأن الله قال له : « اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك » يريدون : كن معى سائراً أمامى فى دعاء الناس لعبادتى ، وأنا سأنصرك على أعدائك . وذلك لأنهم كتبوا فى التوراة : « ليس مثل الله » وكرروها كثيراً .

وكتبوا عن أنفسهم أنهم « آلهة » أى سادة . وأنهم « أرباب » كلهم . أى سادة . وكتبوا عن النبى المنتظر بلسانهم : أن داود قال عنه : إنه سيده . فى قوله : « قال الله لسيدى» أى قال الله لسيد داود . فمن هو سيد داود ؟ إنه النبى المنتظر . على معنى : أننى لو كنت حياً فى مجيئه ؛ لخضعتُ لشريعته .

عيسى عليه السلام يتحدث عن نبى الإسلام بلغة قومه :

أولاً : أطلق اليهود لقب « ابن الله » على النبى المنتظر ، فى المزمور الثانى لداود عليه السلام ونصه : « لماذا ارتجت الأمم ، وتفكر الشعوب فى الباطل ؟ قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معاً ، على الرب وعلى مسيحه . قائلين : لنقطع قيودهما ، ولنطرح عنا ربطهما . الساكن فى السموات يضحك . الرب يستهزىء بهم . حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ، ويرجفهم بغيظه . أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون ، جبل

قدسى . إنى أُخبر من جهة قضاء الرب . قال لى : أنت ابنى . أنا اليوم ولدتك اسألنى فأعطيك الأمم ميراثاً لك ، وأقاصى الأرض ملكاً لك ، تحطمهم بقضيب من حديد . مثل إناء خزاف تكسرهم . فالآن يا أيها الملوك تعقلوا . تأدبوا يا قضاة الأرض . اعبدوا الرب بخوف ، واهتفوا برعدة . قَبِّلوا الابن لئلا يغضب ، فتبيدوا من الطريق ؛ لأنه عن قليل يتقد غضبه طوبى لجميع المتَّكلين عليه » [مزمور ٢ : ١ - ١٢] .

ثانياً أطلق اليهود لقب « الرب » على النبى المنتظر ، فى المزمور المئة والعاشر ، بمعنى السيد . ونصه : « قال الرب لربى : اجلس عن يمينى ، حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك . يُرسل الرب قضيب عزك من صهيون . تسلط فى وسط أعدائك . شعبك منتدب فى يوم قوتك ، فى زينة مقدسة . من رَحِم الفجر لك طَلُّ حداثتك .

أقسم الرب ولن يندم : أنت كاهن إلى الأبد ، على رتبة مَلكى صادق ، الرب عن يمينك يحطم فى يوم رجزه ملوكاً . يدين بين الأمم . ملأ جثثاً ، أرضاً واسعة ، سحق رءوسها ، من النهر يشرب فى الطريق ، لذلك يرفع الرأس » [مزمور ١١٠ : ١ - ٧]

ثالثاً : أطلق اليهود لقب « المسيا » أى « المسيح الرئيس » على النبى المنتظر الآتى مثل موسى . وقالوا : إن لقب « ابن الله » ولقب « الرب » فى مزامير داود ، من ألقابه ، ولقب « ابن الإنسان » فى سفر دانيئال من ألقابه . اعلم هذا ، واعلم أن النصارى مجمعون على هذا ثم اعلم : أن عيسى نفسه عليه السلام فى الأناجيل المقدسة ذاتها . نفى عن نفسه أنه المسيح الرئيس ، بل نفى مجىء المسيح الرئيس من اليهود رأساً ، وبين أنه سيأتى من بنى إسماعيل .

كيف ؟

زعم اليهود العبرانيون أن النبى الآتى سيكون من نسل داود ، من سبط يهوذا — يعنون من اليهود — فوبخهم على هذا الزعم ، وقال لهم : إنه لن يأتى من نسل داود ، ولا من اليهود وذلك لأن داود نفسه فى سفر الزبور قال : إنه سيده . أى سيخضع اليهود لشريعته . والابن لا يكون سيداً لأبيه . وعليه فإنه سيأتى من غير داود . وإذا اتى من غير اليهود ، فمن نسل من سيأتى ؟ أجاب : من نسل إسماعيل عليه السلام . ولماذا ؟ لأن الله وعد إبراهيم بمباركة الأمم والشعوب فى نسل إسماعيل . ولا تكون البركة إلا بشريعة تنزل على رجل من نسله ، يعمل بها الناس فيكونون مباركين من الله بما عملوا . ألم يقل الله لإبراهيم : « ويتبارك فى نسلك

جميع أمم الأرض » ؟ [تك ٢٢ : ١٨] وقال عن إسماعيل : « وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه » وقال عن أم إسحق : « وأباركها وأعطيك منها ابناً ، أباركها فتكون أمماً . وملوك شعوب منها يكونون » وكما حدث لنسل إسحق ، يحدث لنسل إسماعيل . إذ بركة إسحق بدأت من موسى صاحب الشريعة . وقال الله فى حقها : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه : ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم . إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً ، وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين** ﴾ وبدأت بركة إسماعيل من محمد صاحب الشريعة . ومن زمانه صار بنو إسماعيل ملوكاً على الأمم والشعوب ، ليمكنوا للقرآن فى الأرض .

قال عيسى عليه السلام فى رواية بَرْنابا

« الحق أقول لكم : إن كل نبى متى جاء ؛ فإنه إنما يحمل لأمة واحدة فقط ، علامة رحمة الله . ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذى أُرسلوا إليه . ولكن رسول الله متى جاء ، يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده ، فيحمل خلاصاً ورحمة لأمم الأرض ، الذين يقبلون تعليمه ، وسيأتى بقوة على الظالمين ، ويبيد عبادة الأصنام بحيث يخزى الشيطان ؛ لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلاً : انظر فإنى بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ، وكما حطمت يا إبراهيم الأصنام تحطيماً ، هكذا سيفعل نسلك . أجاب يعقوب : يا معلم . قل لنا بمن صُنع هذا العهد ؟ فإن اليهود يقولون بإسحق ، والاسماعيليون يقولون بإسماعيل . أجاب يسوع : ابن من كان داود ؟ ومن أى ذرية ؟ أجاب يعقوب : من إسحق ؛ لأن إسحق كان أبا يعقوب ، ويعقوب كان أبا يهوذا ، الذى من ذريته داود.فحينئذ قال يسوع : ومتى جاء رسول الله فمن نسل من يكون ؟ أجاب التلاميذ : من داود . فأجاب يسوع : لا تغشوا أنفسكم ؛ لأن داود يدعوه فى الروح رباً ، قائلاً هكذا : « قال الله لربى : اجلس عن يمينى حتى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك ، يُرسل الرب قضيبك الذى سيكون ذا سلطان فى وسط أعدائك» فإذا كان رسول الله ، الذى تسمونه مَسِيًّا ، ابن داود ، فكيف يسميه داود ربا ؟ صدقونى ؛ لأنى أقول لكم الحق . إن العهد صُنع بإسماعيل لا بإسحق» [برنابا ٤٣ : ١٣-٣١] .

ب – وقال متى عن عيسى عليه السلام

«وفيما كان الفَرِّيسيُّون مجتمعين ، سألهم يسوع قائلا : ماذا تظنون فى المسيح ؟ ابن من هو ؟ قالوا له : ابن داود . قال لهم : فكيف يدعوه داود بالروح ربا ،

قائلا : قال الرب لربى : اجلس عن يمينى ، حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك فإن كان داود يدعوه ربا ، فكيف يكون ابنه ؟ فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة . ومن ذلك اليوم لم يجسر أحد أن يسأله بتة

حينئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه قائلا : على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ماقالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه ، وافعلوه ، ولكن حسب أعملهم لاتعملوا ؛ لأنهم يقولون ولايفعلون ؛ فإنهم يحزمون أحمالا ثقيلة ، عسرة الحمل ، ويضعونها على أكتاف الناس ، فيعرضون عصائبهم ، ويعظمون أهداب ثيابهم ، ويحبون المتكأ الأول فى الولائم والمجالس الأولى فى المجامع ، والتحيات فى الأسواق ، وأن يدعوهم الناس : سيدي . سيدى . وأما أنتم فلا تدعوا سيدى ، **لأن معلمكم واحد : المسيح** . وأنتم جميعا إخوة ، ولاتدعوا لكم أبا على الأرض ؛ لأن أباكم واحد ، الذى فى السموات ، **ولا تدعوا معلمين ؛ لأن معلمكم واحد : المسيح** . وأكبركم يكون خادما لكم . فمن يرفع نفسه يتَّضع ، ومن يضع نفسه يرتفع» [متى ٢٢ ٤١ الخ]

التعليق :

ماهو الفرق بين رواية برنابا ورواية متى ؟ لقد اتفق الاثنان معا على أن عيسى عليه السلام نفى عن نفسه أنه «المسيح الرئيس» ونفى أيضا أن المسيح الرئيس سيأتى من اليهود لقول داود نفسه عنه : إنه سيده . وقال عيسى عليه السلام لأتباعه : علموا بشريعة موسى بن عمران إلى أن يأتى معلمكم الذى هو المسيح الرئيس . ولاتكونوا معلمين باستقلال عن شريعة موسى . وتواضعوا لله ، ولاتتكبروا عن الدخول فى شريعة «المسيح الرئيس» .

محاولات النصارى لجعل عيسى هو المسيح الرئيس .

المحاولة الأولى

تعبير «يوم الرب» عند اليهود والنصارى ، هو تعبير يدل على اليوم الذى يظهر فيه «المسيح المنتظر» بمجد وسلطان ، ومعه جنده وأعوانه المؤيدون من الله بالنصر على الأعداء . فيحاربون أعداء الله ، ويمكنون لدينه فى الأرض . الدين الذى أراده الله للعالم ، وعرفهم به عن طريق «المسيح المنتظر» وهذا واضح من سفر يوئيل . الذى جاء فيه :

أ – «اضربوا بالبوق فى صهيون . صوِّتوا فى جبل قدسى . ليرتعد جميع سكان الأرض ؛ **لأن يوم الرب** قادم ؛ لأنه قريب . يوم ظلام وقتام ، يوم غيم وضباب ، مثل الفجر ممتدا على الجبال . شعب كثير وقوى لم يكن نظيره منذ الأزل ، ولايكون أيضا بعده ، إلى سنى دور فدور . قدامه نار تأكل ، وخلفه لهيب يحرق . الأرض قدامه كجنة عدن ، وخلفه قفر خرب ، ولاتكون منه نجاة ، كمنظر الخيل منظره ، ومثل الأفراس يركضون ، كصريف المركبات على رءوس الجبال يثبون . كزفير لهيب نار تأكل قشا . كقوم أقوياء مصطفين للقتال . **منه ترتعد الشعوب** كل الوجوه تجمع حمرة ، يجرون كأبطال ، يصعدون السور كرجال الحرب ، ويمشون كل واحد فى طريقه ، ولايغيرون سبلهم ، ولايزاحم بعضهم بعضا . يمشون كل واحد فى سبيله وبين الأسلحة ولاينكسرون . يتراكضون فى المدينة ، يجرون على السور ، يصعدون إلى البيوت ، يدخلون من الكوى كاللص . قدامه ترتعد الأرض ، وترجف السماء . الشمس والقمر يُظلمان ، والنجوم تحجز لمعانها . **والرب يُعطى صوته أمام جيشه . إنَّ عسكره كثير جدا . فإن صانع قوله قوى ؛ لأن يوم الرب عظيم** ، ومخوف جدا . فمن يطيقه ؟» [يوئيل ٢ : ١–١١]

التعليق

فى هذا النص يستفتح اليهود على الذين كفروا ، بأنهم سيغلبونهم إذا ظهر «المسيح» وأن الشعوب سترتعد وستخاف فى يوم ظهوره ؛ لأنه سيكون محاربا منصورا بقوة الله القادر على كل شيء .

ب – ويقول يوئيل النبى : إنه بعد مجيء يوم الرب ، واستقرار الملك للمسيح الرئيس ومعرفة كل المؤمنين للشريعة التى ستكون معه من الله . إنه بعد مجيء يوم الرب ، سيكون الجميع متعلمين من الله ، وكل واحد سيكون قائماً بالشريعة ، عوضاً عن سبط لاوى الذى كان وحده القائم بالشريعة فى بنى إسرائيل . وفى الشريعة الجديدة لا يكون فرق فى معرفة الدين بين الحر والعبد ، وبين الذكر والأنثى . لأن الجميع سيكونون ملهمين من الله . يقول يوئيل : « ويكون بعد ذلك أنى أسكب روحى على كل بشر . فيتنبأ بنوكم وبناتكم ، ويحلم شيوخكم أحلاماً ، ويرى شبابكم رؤى . وعلى العبيد أيضاً ، وعلى الإماء أسكب روحى ، فى تلك الأيام » [يوئيل ٢ : ٢٨ – ٢٩]

ج – ويقول يوئيل النبى : إنه قبل ظهور يوم الرب ، سيعم الفساد والظلم . يقول :

« وأعطي عجائب فى السماء والأرض . دماً وناراً وأعمدة دخان . تتحول الشمس إلى ظلمة ، والقمر إلى دم ، قبل أن يجيء يوم الرب العظيم المخوف ، ويكون أن كل من يدعو باسم الرب ينجو » [يوئيل ٢ : ٣٠ - ٣٢]

تفسير بطرس لنبوءة يوئيل

ادعى بطرس بعد رفع عيسى إلى السماء : أن عيسى هو « المسيح المنتظر » وأن أيام ظهوره هى أيام الرب ، ويوم ارتفاعه إلى السماء هو يوم الرب . وادعى : أن يهودا أتقياء من كل أمة ، كانوا ساكنين فى أورشليم ، فتحولت ألسنتهم إلى ألسنة أخرى بجميع لغات العالم . وادعى : أن هذا هو المراد من نبوءة يوئيل النبى . وغرضه من هذه الادعاءات : هو أن يطبق كل نبوءات التوراة عن محمد ﷺ على عيسى عليه السلام . يقول بطرس فى الأصحاح الثانى من سفر أعمال الرسل بعد ذكر ما قدمنا معناه : « بل هذا ما قيل بيوئيل النبى . يقول الله : ويكون فى الأيام الأخيرة أنى أسكب من روحى على كل بشر ؛ فيتنبأ بنوكم وبناتكم ، ويرى شبابكم رؤى ، ويحلم شيوخكم أحلاماً . وعلى عبيدى أيضاً وإمائى أسكب من روحى فى تلك الأيام . فيتنبأون . وأعطى عجائب فى السماء من فوق ، وآيات على الأرض من أسفل . دماً وناراً وبخار دخان . تتحول الشمس إلى ظلمة ، والقمر إلى دم ، قبل أن يجيء يوم الرب العظيم الشهير ، ويكون كل من يدعو باسم الرب يخلص » [أع ٢ : ١٦ - ٢١]

الرد على بطرس :

ا - إن عبارة يوئيل . فيها الحروب والانتصار على الأعداء . وهى موافقة لقول موسى فى سفر التثنية : « ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبى ، تُباد من الشعب » وعيسى عليه السلام لم يحارب ولم ينتصر .

ب - إن عبارة يوئيل . فيها تغيير الشريعة من قوم لاوى ، إلى جميع المؤمنين بالنبى المنتظر ، وعيسى لم ينسخ التوراة . لقوله : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء » [متى ٥ : ١٧]

المحاولة الثانية :

قال داود عليه السلام عن أن النبى المنتظر سيكون منتصراً على أعدائه بقوة الله تعالى : « احفظنى يا الله ؛ لأنى عليك توكلت . قلت للرب أنت سيدى .

خيرى . لا شيء غيرك . القديسون الذين فى الأرض والأفاضل . كل مسرتى بهم . تكثر أوجاعهم ،الذين أسرعوا وراء آخر . لا أسكب سكائبهم من دم . ولا أذكر أسماءهم بشفتى . الرب نصيب قسمتى وكأسى . أنت قابض قرعتى . حبال وقعت لى فى النعماء . فالميراث حسن عندى .

أبارك الرب الذى نصحنى . وأيضاً : بالليل تنذرنى كليتاى . جعلت الرب أمامى فى كل حين ؛ لأنه عن يمينى فلا أتزعزع ، لذلك فرح قلبى وابتهجت روحى . جسدى أيضاً يسكن مطمئناً ؛ لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية . لن تدع تقيك يرى فساداً . تعرفنى سبل الحياة . أمامك شِبَع وسرور . فى يمينك نِعَم إلى الأبد »
[مزمور ١٦]

تفسير بطرس للمزمور السادس عشر

ادعى بطرس أن عيسى عليه السلام قُتل وصلب ، وأُنزل إلى القبر ، ثم ارتفع إلى السموات ، من قبل أن يُفسد القبر جسده واستدل على ادعائه هذا بالمزمور السادس عشر . فقال : « أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال : يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات ، صنعها الله بيده ، فى وسطكم ، كما أنتم أيضاً تعلمون . هذا أخذ تموه مُسلماً بمشورة الله المحتومة ، وعلمه السابق . وبأيدى آثمة صلبتموه وقتلتموه . الذى أقامه الله ناقضاً أوجاع الموت . إذ لم يكن ممكناً أن يُمسك منه ؛ لأن داود يقول فيه : « كنت أرى الرب أمامى فى كل حين أنه عن يمينى ، لكى لا أتزعزع . لذلك سُرَّ قلبى وتهلل لسانى ، حتى جسدى أيضاً سيسكن على رجاء ؛ لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية ، ولا تدع قدوسك يرى فساداً . عرفتنى سُبل الحياة وستملأنى سروراً مع وجهك » [أع ٢ : ٢٢ - ٢٨]

الرد على بطرس :

عبارات المزمور السادس عشر تدل على مؤامرات وفتن ، تُحاك ضد المسيح المنتظر ، ولا تضره . لأن الله تعالى سينصره . وعيسى عليه السلام لم يحاربه أعداءه . وقوله : « لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية ، لن تدع تقيك يرى فساداً » معناه : أن الله لن يترك المسيح الرئيس فى يد أعدائه . وبطرس يفسره بأنه لن يترك عيسى للدود فى القبر . وتفسيره باطل . وذلك لأن بعض الأناجيل روت أن المسيح عيسى لم يقتل ولم يصلب ، والذى قُتل وصلب هو « يهوذا الأسخريوطى » عوضاً عن

المسيح . ومنهم إنجيل بَرْنابا . والأناجيل الأربعة وسفر الأعمال فيهم أن المسيح أكل وشرب بعد حادثة القتل والصلب مع الحواريين ، وأنه ظهر لهم لمدة أربعين يوماً والذى يُدفن لا يخرج ليأكل وليشرب ، بل الذى يجلس بجوار الله على العرش - كما يدعون - لا يترك العرش وينزل ليمشى بين الناس .

والتوراة تكذب قولهم فى جلوس المسيح بجوار الله فى السماء . وذلك لأن فيها أن الله ليس جسماً لقوله : « ليس مثل الله » [تث ٣٣ : ٢٦] وفيها أن الله فى كل مكان بعلمه لا بذاته . لقوله : « ألعلِّى إله من قريب . يقول الرب . ولست إلهاً من بعيد ؟ إذا اختبأ إنسان فى أماكن مستترة . أفما أراه أنا ؟ يقول الرب . أما أملأ أنا السموات والأرض ؟ يقول الرب » [إرمياء ٢٣ : ٢٣ - ٢٤] فإله يملأ السموات والأرض . كيف يجلس المسيح بجواره والمسيح جسم ؟

المحاولة الثالثة :

من النبوءات التى فى التوراة عن النبى المنتظر الذى لقبوه بلقب « المسيح الرئيس » : نبوءة المزمور المئة والعاشر . وفيها يقول داود عليه السلام عن النبى المنتظر : إنه سيده . فأخذ بطرس هذا المزمور ، وطبقه على عيسى عليه السلام وقال للناس : « إن الله جعل يسوع هذا ، الذى صلبتموه أنتم رباً ومسيحاً » يقصد بالرب سيدى فى قول داود : قال الله لسيدى . وسيدى تترجم ربى . ويقصد بمسيحه : أن عيسى هو النبى المنتظر ، الملقب بلقب المسيح الرئيس ، لا محمد النبى الآتى من إسماعيل ، المبارك فيه . ونص مزمور داود من ترجمة الآباء اليسوعيين هو هذا :

« قال الرب لسيدى : اجلس عن يمينى حتى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك . عصا عزّتك يُرسلها الرب من صِهْيَون . تسلط فيما بين أعدائك . إن شعبك متطوع يوم قدرتك . فى بهاء القداسة ، من الجوف قبل الفجر ، لك ندى ولادتك . أقسم الرب ولن يندم : أنْ أنتَ كاهن إلى الأبد ، على رُتبة ملكى صادق . السيد عن يمينك . يُحطم الملوك يوم غضبه . يدين فى الأمم . يملأها جثثاً . يهشم الرأس على أرض واسعة . من الوادى يشرب فى الطريق ، لذلك يرفع رأسه » [مز ١٠٩ : ١ - ٧]

هذا هو نص المزمور . وفيه : التعابير الكنائية عن أن الله سينصر النبى على أعدائه فى ساحة الوغى . فهل جهز عيسى جيشاً ؟ وهل حارب عدواً ؟ ومع هذا يقول بطرس : إن بطرس ارتفع إلى السماء بيمين الله ، وسكب الروح القدس على اليهود الأتقياء الساكنين فى أورشليم ، فتكلموا بلغات العالم « لأن داود لم يصعد إلى

السموات . وهو نفسه يقول : قال الرب لربي : اجلس عن يميني ، حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك . فليعلم يقيناً جميع بيت إسرائيل : أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم : رباً ومسيحاً »

[أع ٢ : ٣٤ - ٣٦]

الموعد :

وقال بطرس : « لأن الموعد هو لكم ولأولادكم ، ولكل الذين على بُعد . كل من يدعوه الرب إلهنا » [أع ٢ : ٣٩] أى موعد ؟

إنه بعدما ذكر نصوص نبوءات من التوراة ، عن النبى المنتظر ، وطبقها قسراً على يسوع المسيح ؛ قال بعدما ذكرها : إن الموعد هو أ - لليهود ب - وللأمم . فما هو الموعد ؟

أصل الموعد : هو أن الله قد عاهد إبراهيم عليه السلام بأن يسير أمامه فى البلاد لدعوة الناس إلى عبادته ، بالكلمة الطيبة ، وبقتال من يصد عن سبيل الله .ووعد الله إبراهيم بأن يكون ا - نسل إسحق من بعده ب - ونسل إسماعيل من بعده ؛ دعاة إلى عبادته . والنسل الذى يبدأ أولاً يكون نسل إسحق . وفى الأيام التى هى له للدعوة ، يجلس من نسله ملوك على الأمم . يمكنوا للشريعة التى جعلها الله للناس عن طريق النسل ، وهى كانت فى نسل إسحق شريعة موسى عليه السلام ثم يقوم نسل إسماعيل من محمد ﷺ وبطرس يريد أن يلغو فى الموعد الذى هو لنسل إسماعيل من بعد عيسى . وذلك بجعله موعداً لعيسى عليه السلام موعداً لمن يؤمن به من اليهود ، ولمن يؤمن به من الأمم .

ونصوص المواعيد : هى :

١ - « ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ؛ ظهر الرب لأبرام ، وقال له : أنا الله القدير . سر أمامى ، وكن كاملاً ؛ فأجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيراً جداً . فسقط أبرام على وجهه . وتكلم الله معه قائلاً : أما أنا فهو ذا عهدى معك ، وتكون أباً لجمهور من الأمم ، فلا يدعى اسمك بعد أبرام ، بل يكون اسمك إبراهيم ؛ لأنى أجعلك أباً لجمهور من الأمم ، وأثمرك كثيراً جداً ، وأجعلك أمماً . وملوك منك يخرجون . وأُقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهداً أبدياً . لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك . وأُعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غُربتك . كل أر ض كنعان ، ملكاً أبدياً . وأكون إلههم »

٢ - « وقال الله لإبراهيم : ساراى امرأتك لا تدعو اسمها ساراى ، بل سارة . وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً . أباركها فتكون أمماً وملوك شعوب منها يكونون »
٣ - « وقال إبراهيم لله : ليت إسماعيل يعيش أمامك .
فقال الله .
وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . هاأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً . اثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة » [تكوين ١٧]
فإسماعيل له بركة أى ملك على الشعوب ، ونبوّة . ولكن اليهود من أيام سبى بابل يزعمون بأن العهد بالنبوة فى إسحق وحده . ولو كان إسماعيل محروماً من النبوة ، لما نصت التوراة على بركة له ولما منعت إتيان المماثل لموسى من بنى إسرائيل ، إذ كيف تقول : لن يقوم فى بنى إسرائيل مثل موسى . وتقول : إن النبى الآتى من بنى إسرائيل ؟ هذا مستحيل قبوله . ولو كان العهد فى إسحق وحده إلى الأبد . فأى فائدة تكون من التنصيص على نبى يأتى من غير بنى إسرائيل ؟
ولذلك جاء فى رواية لبرنابا عن المسيح عيسى عليه السلام :
« حينئذ قال التلاميذ : يا معلم هكذا كتب فى كتاب موسى : أن العهد صُنع بإسحق . أجاب يسوع متأوهاً : هذا هو المكتوب ولكن موسى لم يكتبه ولا يشوع ، بل أحبارنا الذين لا يخافون الله . الحق أقول لكم : إنكم إذا أعملتم النظر فى كلام الملاك جبريل ، تعلمون خبث كتبتنا وفقهائنا ؛ لأن الملاك قال : يا إبراهيم سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ؟ ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله ؟ حقاً . يجب عليك أن تفعل شيئاً لأجل محبة الله . أجاب إبراهيم : هاهو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله .

فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلاً : خذ ابنك بكرك إسماعيل وأصعده الجبل لتقدمه ذبيحة . فكيف يكون إسحق البكر ، وهو لما ولد ، كان إسماعيل ابن سبع سنين ؟

فقال حينئذ التلاميذ : إن خداع الفقهاء لجلى ، لذلك قل لنا أنت الحق ؛ لأننا نعلم أنك مرسل من الله . فأجاب حينئذ يسوع : الحق أقول لكم : إن الشيطان يحاول دائماً إبطال شريعة الله . فلذلك قد نجس هو وأتباعه والمراؤن وصانعو الشر كل شيء اليوم . الأولون بالتعليم الكاذب ، والآخرون بمعيشة الخلاعة ، حتى لا يكاد يُوجد الحق تقريباً . ويل للمرائين لأن مدح هذا العالم سينقلب عليهم إدانة وعذاباً فى الجحيم .

لذلك أقول لكم : إن رسول الله بهاء يسر ، كل ما صنع الله تقريباً ؛ لأنه مزدان

بروح الفهم والمشورة ، روح العدل والقوة ، روح الخوف والمحبة ، روح التبصر والاعتدال . مزدان بروح المحبة والرحمة ، روح العدل والتقوى ، روح اللطف والصبر ، التى أخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه .
ما أسعد الزمن الذى سيأتى فيه إلى العالم ... الخ » [بر ٤٤ : ١ - ٢٧]

المحاولة الرابعة لبطرس .

قال موسى لبنى إسرائيل : « يُقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون ... الخ [تثنية ١٨ : ١٥ - ٢٢]
وهذا النبى هو محمد ﷺ لأن الأوصاف فى النص تدل عليه ، مع ما لإسماعيل أبيه من بركة منصوص عليها فى سفر التكوين فادعى بطرس بعد رفع المسيح مباشرة إلى السماء:أن هذا النبى المنتظر هو يسوع ، الذى يُدعى المسيح . قال بطرس : « والآن أيها الأخوة . أنا أعلم أنكم بجهالة عملتم ، كما رؤساكم أيضاً . وأما الله فما سبق وأنبأ به بأفواه جميع أنبيائه أن يتألم المسيح .قد تممه هكذا . فتوبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم ، لكى تأتى أوقات الفرج من وجه الرب ويُرسِلَ يسوعَ المسيح المبشرَ به لكم قبل . الذى ينبغى أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شيء ، التى تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر . فإن موسى قال للآباء : إن نبيا مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم . له تسمعون فى كل ما يكلمكم به ، ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبى ، تُباد من الشعب ، وجميع الأنبياء أيضاً من صموئيل فما بعده ، جميع الذين تكلموا سبقوا وأنبأوا بهذه الأيام . أنتم أبناء الأنبياء ، والعهد الذى عاهد به الله آباءنا قائلاً لإبراهيم : وبنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض » [أعمال ٣ : ١٧ - ٢٥]

التعليق :

١ - لاحظ : « ويُرسل - أى الله يرسل - يسوعَ المسيحَ المبَشَّرَ به لكم قبل » من الذى سيرسل يسوع المسيح ؟ فإن النص يدل على اثنين ١ - مُرسِل وهو الله ٢ - ومُرسَل وهو المسيح .
والنصارى الأرثوذكس يعتقدون أن الله هو المسيح .أى يعتقدون بواحد انقلب إلى مسيح .
وعلى اعتقادهم هذا ، يخرج النص من بين أيديهم ولا يشهد لهم .
٢ - لاحظ : « بنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض » واعلم : أن اسماعيل من نسل

إبراهيم . لقوله : « بإسحق يُدعى لك نسل ، وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك » [تكوين ٢١ : ١٣ - ١٤]
٣ - لاحظ : أن موسى قال عن المسيح الرئيس : إنه مثلى . وقال : لن يأتى مثلى من بنى إسرائيل . وحدد المثلية بالحروب والانتصار على الأعداء والملك . وعيسى من بنى إسرائيل . فلا يكون هو المماثل لموسى عليه السلام .
٤ - لاحظ : « ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبى ، تُباد من الشعب » أى يكون النبى الآتى محارباً ومنتصراً على أعدائه . وعيسى قال : « أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ولم يحارب ولم ينتصر .

المحاولة الخامسة من بطرس :

أولاً : تنبأ داود عليه السلام عن نبى الإسلام ﷺ فى المزمور المئة والسابع[1] عشر بعبارات تفيد بأنه ا - سيكون محارباً ومنتصراً « باسم الرب أُدمِّرهم » ب - لا يُقتل بيد أعدائه : « لا أموت بل أحيا ، وأُحدِّث بأعمال الرب . قد أدبنى الرب تأديباً ، ولكن لم يسلمنى إلى الموت »

ج - من النسل المحتقر فى أعين بنى إسرائيل « الحجر الذى رذله البناءون ، هو صار رأساً للزاوية من عند الرب كان ذلك ، وهو عجيب فى أعيننا » ونسل اسماعيل نسل محتقر فى أعينهم ؛ لأنهم من سارة الحرة ، والإسماعيليون من هاجر والمراد من الحجر المرفوض : بنو إسماعيل ؛ لأن الله أعطاه بركة مساوية لبركة إسحق أخيه .
د - ينهى الطقوس والشعائر الدينية اليهودية ، لقوله : « فزينوا العيد بأغصان مشبكة إلى قرون المذبح » وفى ترجمة البروتستانت : « أوثقوا الذبيحة بربط إلى قرون المذبح » كناية عن انتهاء الطقوس والشعائر الدينية اليهودية على يد النبى المنتظر المماثل لموسى عليه السلام
هـ - مبارك من الله . لقوله : « مبارك الآتى باسم الرب »
و - مشهود له من عند علماء بنى إسرائيل الكهنة وذلك لأنه مذكور فى كتب التوراة التى معهم . لقوله : « باركناكم من بيت الرب »
وهذا هو نص المزمور : « اعترفوا للرب ؛ لأنه صالح ؛ لأن إلى الأبد رحمته .

(١) ترجمة اليسوعيين

ليقل إسرائيل : إن إلى الأبد رحمته . ليقل بيت هرون : إن إلى الأبد رحمته . ليقل المتقون للرب : إن إلى الأبد رحمته . من الضيق دعوت الرب فاستجاب الرب لى بالرُّحب . الرب معي . لا أخاف . وماذا يصنع بى البشر ؟ الرب معى بين ناصرى فأرى خيبة مبغضىَّ . ألاعتصام بالرب خير من الاتكال على البشر . الاعتصام بالرب خير من الاتكال على العظماء . أحاطت بى جميع الأمم . باسم الرب أُدمرهم . أحاطوا بى ثم أحاطوا بى . باسم الرب أدمرهم . أحاطوا بى كالنحل ، ثم خمدوا كنار الشوك . باسم الرب أدمرهم . **لقد دفعتنى لكى أسقط ، لكن الرب نصرنى** . الرب عزِّى وتسبيحى . لقد كان لى خلاصاً . صوت ترنم وخلاص فى أخبية الصديقين . يمين الرب صنعتْ ببأس . يمين الرب ارتفعت . يمين الرب صنعت ببأس . لا أموت بل أحيا ، وأحدثُ بأعمال الرب قد أدبنى الرب تأديباً ، ولكن لم يسلمنى إلى الموت . إفتحوا لى أبواب البر ، فأدخل فيها واعترف للرب . هذا باب الرب . فيه يدخل الصديقون . اعترف لك ؛ لأنك استجبتنى وكنت لى خلاصاً .

الحجر الذى رذله البناءون هو صار رأساً للزاوية . من عند الرب كان ذلك . وهو عجيب فى أعيننا . هذا هو اليوم الذى صنعه الرب ، فلنبتهج ونهلل فيه . يارب خلِّص . يارب أنجح . مبارك الآتى باسم الرب . باركناكم من بيت الرب . ألربُّ هو الله . وقد أنارنا .فزينوا العيد بأغصان مُشبّكة إلى قرون المذبح . أنت إلهى فأعترف لك . اللهم إنى أرفعك . إعترفوا للرب ؛ لأنه صالح ؛ لأن إلى الأبد رحمته » [مزمور ١١٧]

هذا هو نص المزمور . وفيه : « الحجر الذى رذله البناءون ، هو صار رأساً للزاوية . من عند الرب كان ذلك . وهو عجيب فى أعيننا » وفى ترجمة البروتستانت : « الحجر الذى رفضه البناءون ، قد صار رأس الزاوية . من قِبَل الرب كان هذا . وهو عجيب فى أعيننا »

ثانياً : استدلال عيسى بن مريم على مجيء نبى الإسلام بزبور داود :

١ – تنبأ دانيال النبى عن قيام ملكوت السموات على الأرض ، بعد زوال المملكة الرابعة . وهى مملكة الرومان . فى الأصحاح الثانى والسابع من سفره . وقد شرحناه شرحاً وافياً فى كتابنا « البشارة بنبى الإسلام فى التوراة والإنجيل »

٢ – نادى عيسى عليه السلام فى بنى إسرائيل مع يوحنا المَعْمَدان بقوله : « توبوا ؛ لأنه قد اقترب ملكوت السموات » [متى ٤ : ١٧]

٣ – ضرب عيسى عليه السلام أمثلة لملكوت السموات . ومن الأمثلة التى ضربها : مثل ورد معناه فى القرآن الكريم . وهو : « يُشبه ملكوت السموات حبة خردل . أخذها إنسان وزرعها فى حقله ، وهى أصغر جميع البزور . ولكن متى نمت فهى أكبر البقول . وتصير شجرة ؛ حتى إن طيور السماء ، تأتى وتتآوى فى أغصانها » [متى ١٣ : ٣١ – ٣٢] وفى القرآن الكريم : ﴿ ومثلهم فى الإنجيل كزرع . أخرج شطئه . فآزره . فاستغلظ فاستوى على سوقه ﴾ أى أن المسلمين فى البدء يكونون قلة قليلة ، ثم يكثرون فى الأرض .

٤ – ومن الأمثلة التى ضربها عيسى عليه السلام لملكوت السموات مثل الكرامين الأردياء . والغرض من ضربه : هو بيان انتقال الملك والشريعة من بنى إسرائيل إلى أمة بنى إسماعيل . ولما استبعد علماء بنى إسرائيل هدفه ؛ قال لهم عيسى عليه السلام : هذا هو الذى تنبأ عنه داود فى المزمور المئة والثامن عشر بقوله : « الحجر الذى رفضه البناءون ، هو قد صار رأس الزاوية » ثم صرح لهم بنزع الملكوت منهم إلى أمة أخرى . هى أمة بنى إسماعيل ؛ لأن له بركة .

قال عيسى عليه السلام :

« اسمعوا مثلاً آخر : كان إنسان رب بيت غرس كرماً ، وأحاطه بسياج ، وحفر فيه معصرة وبنى برجا وسلّمه إلى كرامين وسافر . ولما قرب وقت الأثمار ، أرسل عبيده إلى الكرامين ، ليأخذ أثماره . فأخذ الكرامون عبيده ، وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً . ثم أرسل أيضاً عبيداً آخرين أكثر من الأولين . ففعلوا بهم كذلك . فأخيراً : أرسل إليهم ابنه قائلاً : يهابون ابنى . وأما الكرّامون ؛ فلمّا رأوا الابن قالوا فيما بينهم : هذا هو الوارث . هلموا نقتله ونأخذ ميراثه . فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه . فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟

قالوا له : أولئك الأردياء يهلكهم هلاكاً ردياً ، ويُسلّم الكرم إلى كرامين آخرين ، يُعطونه الأثمار فى أوقاتها . قال لهم يسوع : أما قرأتم قط فى الكتب[1]: الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية . مِنْ قِبَل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا . لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله يُنزع منكم ، ويُعطى لأمة تعمل أثماره . ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه يسحقه . ولما سمع رؤساء الكهنة والفرّيسيُّون أمثاله ؛ عرفوا أنه تكلم عليهم . وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه ، خافوا من الجموع ؛ لأنه كان عندهم مثل نبى » [متى ٢١ : ٣٣ – ٤٦]

(١) يقصد المزمور المئة والثامن عشر فى ترجمة البروتستانت وهو المئة والسابع عشر فى ترجمة الآباء اليسوعيين .

ثالثاً : تضليل بطرس فى كلام داود وعيسى بن مريم :

شفا بطرس رجلاً أعرج ، فاجتمع الناس حوله ، فخاطبهم قائلاً : « يا رؤساء الشعب وشيوخ إسرائيل . إن كنا نُفحص اليوم عن إحسان إلى إنسان سقيم بماذا شُفى هذا ؟ فليكن معلوما عند جميعكم ، وجميع شعب إسرائيل : أنه باسم يسوع المسيح الناصرى الذى صلبتموه أنتم ، الذى أقامه الله من الأموات . بذاك وقف هذا أمامكم صحيحاً . هذا هو الحجر الذى احتقرتموه أيها البناءون ، الذى صار رأس الزاوية . وليس بأحد غيره الخلاص . لأنْ ليس اسم آخر تحت السماء قد أُعطى بين الناس ، به ينبغي أن نخلُصَ » [أعمال ٤ : ٨ - ١٢]

الرد على بطرس

أنت تحتج بالمزمور على صحة نبوة عيسى عليه السلام . والمزمور الذى تحتج به يشهد بأن النبى المنتظر لا يُقتل ولا يُصلب . ويشهد بأنه نبى لا إله ، ويشهد بأنه سيغير شعائر الدين . وعيسى عندكم أيها النصارى هو الله رب العالمين مُتَجَسِّداً . على مذهب . وهو إله ثان . على مذهب . وعلى اعتقاداتكم ، وعلى قول المسيح نفسه بأنه لم ينقض شريعة موسى ولم ينسخها ، لا يكون المزمور حجة لكم . ثم إن عيسى قال : إن الملكوت يُنزع غصباً من اليهود ، أى يُنزع بالحرب والقتال الشديد ويُسلَّم إلى أمة أخرى . وأنتم أيها النصارى واليهود أمة واحدة . فالمزمور ليس لكم .

المحاولة السادسة :

لما وصل بطرس ويوحنا إلى رفقائهما ، وأخبراهم بحالهما مع رؤساء الكهنة والشيوخ . رفع الجميع صوتاً إلى الله . وقالوا : « أيها السيد أنت هو الإله الصانع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها . القائل بفم داود فتاك : « لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب بالباطل ؟ قام ملوك الأرض ، واجتمع الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه » لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس ، يسوع الذى مسحته : هيرودس وبيلاطس البُنْطى ، مع أمم وشعوب إسرائيل » [أعمال ٤ : ٢٤ - ٢٧]

تفسير الكلام :

تحدث داود عليه السلام فى المزمور الثانى عن نبى الإسلام ﷺ بلقب « ابن الله » على عادة بنى إسرائيل فى تلقيب أنبيائهم ، بل وكل فرد فيهم ، بلقب « ابن

الله » على معنى أنهم منتسبون إليه ، لا إلى الشيطان ، أو إله غير الله تعالى . فاقتبس بطرس ورفاقه عبارة داود ، وألصقوها بعيسى عليه السلام . وهى أصل أقنوم الابن فى عقائد النصارى . وعلى ذلك . فمن يبغى هدم التثليث من أساسه ، عليه أن يذكر نبوءة الابن ثم يناقش فيها النصارى . وبالمناقشة فيها ينهد التثليث من أساسه ، ولا تقم له قائمة

نص كلام داود :

« لماذا ارتجت الأمم ، وتفكر الشعوب فى الباطل ؟ قام ملوك الأرض ، وتآمر الرؤساء معاً ، على الرب وعلى مسيحه . قائلين : لنقطع قيودهما ، ولنطرح عنا رُبُطهما . الساكن فى السموات يضحك ، الرب يستهزىء بهم . حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ، ويرجفهم بغيظه . أما أنا فقد مسحت ملكى على صِهْيون ، جبل قدسى . إنى أُخبر من جهة قضاء الرب : قال لى : أنت ابنى . أنا اليوم ولدتك اسألنى فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصى الأرض ملكاً لك. تحطمهم بقضيب من حديد . مثل إناء خزَّاف تكسرهم . فالآن يا أيها الملوك تعقلوا . تأدبوا يا قضاة الأرض . اعبدوا الرب بخوف ، واهتفوا برعدة . قبِّلوا الابن لئلا يغضب ؛ فتبيدوا من الطريق ؛ لأنه عن قليل يتَّقد غضبه . طوبى لجميع المتكلين عليه » [مزمور ٢]

التعليق :

إن هذا النص لا يدل على عيسى عليه السلام لأنه لم يحطم أعداءه بقضيب من حديد ، ولأن عيسى نفسه قال للحواريين : إن « ابن الله » سيأتى من بعدى ، ويجب أن تكرموه وتؤمنوا به . وقد اقترب مجيئه ، ومن يؤمن بكلامه فكأنه كان ميتاً وحيى ، ومن صفات الابن الآتى : أن الله أعطاه حياة فى ذاته ليدين أعداءه وينتصر عليهم . يقول عيسى عليه السلام : « الحق الحق أقول لكم : إنه تأتى ساعة . وهى الآن . حين يسمع الأموات صوت ابن الله ، والسامعون يحيون ؛ لأنه كما أن الآب له حياة فى ذاته ، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة فى ذاته ، وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً ؛ لأنه ابن الإنسان » [يو ٥ : ٢٥ - ٢٧]

محاولات النصارى لجعل نبوءة « ابن الله » على عيسى عليه السلام :

أ - إن بطرس ورفقاءه قد طبقاها على يسوع . على معنى أن ملوك الأرض ورؤساء الأرض - كل الملوك والرؤساء - اثنان.هما هِيرُودُس وبيلاطس ، الواليان

على فلسطين من قِبَل قيصر الرومان . ومن يصدق هذا ؟ هل هما كل ملوك الأرض ورؤساء الأرض ؟ وفى الإنجيل أنهما لم يتآمرا على يسوع المسيح . وإنما المتآمرون عليه هم بنو إسرائيل من دون الناس .

ففى إنجيل يوحنا : « ثم دخل بيلاطُس أيضاً إلى دار الولاية . ودعا يسوع ، وقال له : أنت ملك اليهود ؟ أجابه يسوع : أمن ذاتك تقول هذا ، أم آخرون قالوا لك عنى ؟ أجابه بيلاطُسُ : ألعلِّى أنا يهودى ؟ أُمَّتك ورؤساء الكهنة أسلموك إلَىَّ . ماذا فعلت ؟ أجاب يسوع : مملكتى ليست من هذا العالم . لو كانت مملكتى من هذا العالم ، لكان خدامى يُجاهِدُون ، لكى لا أُسلَّم إلى اليهود . ولكن الآن ليست مملكتى من هنا . فقال له بيلاطس : أفأنت إذاً ملك ؟ أجاب يسوع : أنت تقول إنى مَلِك . لهذا قد وُلدت أنا ، ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق . كل من هو من الحق يسمع صوتى . فقال له بيلاطس : ماهو الحق ؟ ولما قال هذا خرج أيضاً إلى اليهود ، وقال لهم : أنا لست أجد فيه عِلَّة واحدة » [يو ١٨ : ٢٣ - ٣٨]

من هو هذا الذى يفهم من ذلك النص أن بيلاطُوس قد تآمر على المسيح ؟ رجل يقول : « أنا لست أجد فيه علة واحدة » أى أىَّ سبب يستوجب به أن يُؤذى ؟ هل يقال فى حقه : إنه تآمر على المسيح ؟

وانظر إلى قول المسيح : « أتيتُ إلى العالم لأشهد للحق » فهل شهادته للحق ، تدل على أنه المسيح الرئيس ؟ المسيحُ الملك المماثل لموسى فى الحروب والملك . هل هو فى مثوله أمام بيلاطس كان قد أسس مملكة لاتنقرض أبداً ؟ كما يقول دانيال عن المسيح الرئيس .

هذا من جهة بيلاطس . وأما من جهة هيرودوس . فإن لوقا يقول : إن بيلاطس أرسل المسيح إلى هيرودوس لمحاكمته « وأما هيرودس فلما رأى يسوع فرح جداً ؛ لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه ، لسماعه عنه أشياء كثيرة ، وترجَّى أن يرى آية تُصنع منه » [لو٢٣ : ٨] فهل كان هيرودس من المتآمرين على يسوع ؟ ألم يفرح بلقائه ؟

ب - وضع كاتب سفر أعمال الرسل فى قصة فِيلُبُّس والخصىِّ الحبشى : « أن يَسُوع المسيح هو ابن الله » [أع ٨ : ٣٧]

ج - احتج بُولُوس بسفر المزامير وغيره على أن عيسى عليه السلام هو المسيح الرئيس . فقال : « كما هو مكتوب أيضاً فى المزمور الثانى : أنت ابنى . أنا اليوم ولدتك . إنه أقامه من الأموات غير عتيد أن يعود أيضاً إلى فساد . فهكذا قال :

إنى سأعطيكم مراحم داود الصادقة[1]. ولذلك قال أيضاً فى مزمور آخر : لن تدع قدوسك يرى فساداً » [أع ١٣ : ٣٣ –٣٥]

د – فى سفر الأعمال عن بولس : « لأنه كان باشتداد يفحم اليهود جهراً ، مبيناً بالكتب : أن يسوع هو المسيح » [أع ١٨ : ٢٨] ومن النبوءات عن المسيح نبوءة ابن الله .

هـ – «وأما شاول . فكان يزداد قوة ، ويحير اليهود الساكنين فى دمشق ، محققا : أن هذا هو المسيح » [أع ٩ : ٢٢]

المحاولة السابعة :

فى الأصحاح السابع من سفر النبى دانيئال : أن أربعة ممالك تقوم على الأرض . والرابعة هى مملكة الروم . والذى يزيلها من أرض فلسطين هو « ابن الإنسان » الذى سيرسله الله إلى العالم وينصره ويؤيده . وعبَّر دانيئال عن أتباعه بأن مملكتهم إلهية لأن شريعتهم من رب السماء ، لا من قوانين البشر ووصايا الناس . قال دانيئال عن حلم رآه بعدما حكى عن الممالك الأربعة : « كنت أرى فى رؤى الليل . وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام ، فقربوه قدامه ؛ فأعطى سلطاناً ومجداً وملكوتاً ؛ لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة . سلطانه سلطان أبدى مالن يزول ، وملكوته ما لا ينقرض » [دا ٧ : ١٣ : ١٤]

ويقول النصارى : إن المراد بالممالك ١ – بابل ٢ – وفارس ٣ – واليونان ٤ – والرومان . ويقولون أيضاً : إن « ابن الإنسان » ويترجمونه أيضاً « ابن البشر » هو المَسِيَّا الرئيس . فمن هو المسيا الرئيس ؟

احتجاج عيسى ويحيى بكلام دانيئال على مجىء محمد ﷺ .

روى متى : « وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية قائلاً : توبوا ؛ لأنه قد اقترب ملكوت السموات » [متى ٣ : ١ – ٢]

وروى متى : « من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يَكْرِز ويقول : توبوا ؛ لأنه قد اقترب ملكوت السموات » [متى ٤ : ١٧]

---

(١) « وأقطع لكم عهداً أبدياً . مراحم داود الصادقة . هو ذا قد جعلته شارعاً للشعوب ، رئيساً وموصياً للشعوب » [إشعياء ٥٥ : ٣ – ٤] « أيها الرب الإله لا ترد وجه مسيحك . اذكر مراحم داود عبدك » [٢ أخ ٦ : ٤٢]

وإذا قالا معا : « اقترب ملكوت السموات » فقول يوحنا : «يأتى بعدى من هو أقوى منى ، الذى لست أهلاً أن أنحنى وأحل سيور حذائه » [مر ١ : ٧] يكون عن نبى الإسلام محمد صاحب ملكوت السموات .

ولكن النصارى قالوا : إن ملكوت السموات هو ملكوت عيسى عليه السلام وقالوا : إن يحيى كان يعنى بالذى يأتى من بعده يسوع المسيح . كيف هذا ؟ كيف هذا مع قول المسيح نفسه : « ولست أنا بعدُ فى العالم » [يو ١٧ : ١١] ؟ كيف هذا وقد ظلت دولة الرومان قائمة إلى أن أزالها محمد ﷺ ؟

محاولة استفانوس جعل عيسى هو ابن الإنسان صاحب ملكوت السموات :

وضع كاتب سفر أعمال الرسل فى قصة استشهاد إستفانوس : « أنا أنظر السموات مفتوحة ، وابن الإنسان قائماً عن يمين الله » [أع ٧ : ٥٦]

المحاولة الثامنة :

قال يُوحنَّا المعمَدَان عن نبى الإسلام ﷺ : « يأتى بعدى مَنْ هو أقوى منى ، الذى لست أهلاً أن أنحنى وأحل سيور حذائه » [مرقس ١ ٧]

« أجاب يسوع : إن الآيات التى يفعلها الله على يدى ، تُظهر أنى أتكلم بما يريد الله ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه ؛ لأنى لست أهلاً أن أحل رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله ، الذى تسمونه مَسِيا » [برنابا ٤٢ : ١٣ – ١٥]

فعيسى عليه السلام قال عن نبى الإسلام ﷺ بمثل ما قال يوحنا المعمدان . وهو قول يدل على التواضع له والاحترام .

وكاتب سفر أعمال الرسل قال : إن المعمدان يقصد بمن سيأتى من بعده يسوع الذى يدعى المسيح . قال : « فحدث فيما كان أبلُّوس فى كورنثوس . أن بولس بعدما اجتاز فى النواحى العالية . جاء إلى أفسس . فإذ وجد تلاميذ ، قال لهم : هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم ؟ قالوا له : ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس . فقال لهم : فبماذا اعتمدتم ؟ فقالوا : بمعمودية يوحنا . فقال بولس : إن يوحنا عمَّد بمعمودية التوبة قائلاً للشعب : أن يؤمنوا بالذى يأتى بعده . أى بالمسيح يسوع » [أع ١٩ ١ – ٤]

المحاولة التاسعة :

الروح القدس

تعبير الروح القدس عند النصارى ، هو تعبير خاص بالمسيا المنتظر ، واسمه عندهم « بِيراكليت » ولقبه « الروح القدس » وإذا قالوا : نحن ننتظر الروح القدس . فهم يقصدون أنهم ، ينتظرون المسيا الرئيس . والكلمة العبرانية « بِيراكليت » تُنطق أيضاً « باراكليت » وهى بفتح الباء تدل على الآتى من بعد المسيح . وهى بكسر الباء تدل على اسم « أحمد »

وقد نطق عيسى عليه السلام باسم أحمد « بيراكليت » وقال فى أوصافه : إنه سيعلم كل شىء . وسيذكر بكل ما قاله المسيح للحواريين .

وقد ضلل النصارى فى « بيراكليت الروح القدس » بما يلى :

١ - ادعوا : أن عيسى ما نطق « بيراكليت » التى هى اسم أحمد ، وإنما نطق « باراكليت » التى تعنى الآتى من بعد المسيح

٢ - ادعوا : أن الروح القدس ليس لقباً لبيراكليت ، وإنما هو لقب للإله الثالث فى ثالوث الآب والابن والروح القدس .

٣ - قالوا : إن يوحنا المعمدان عَمَّد بالماء ، وأن كل من يؤمن بالمسيح سيعمد بالروح القدس . فما هو معنى التعميد بالروح القدس عندهم ؟

هو أن كل من يؤمن بالمسيح رباً وإلهاً مصلوباً عن خطايا العالم ، يحل عليه إلهام من الله ، ليفعل الخير وينأى عن الشر . وكتبوا فى الإنجيل أن المسيح بعد حادثة صلبه ، ظهر لهم ونفخ فى وجوه تلاميذه ، وقال لهم : « اقبلوا الروح القدس . من غفرتم خطاياه ، تُغفر له ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت » [يو ٢٠ : ٢٢ - ٢٣]

٤ - حذفوا كلمة « بيركليت » ووضعوا اليوم فى تراجم الإنجيل « المعزِّى » وفى الإنجيل عربى وانجليزى ، وضعوا « المُعِين » هكذا : « وأما الروح القدس . المعين ، الذى سيرسله الآب باسمى ؛ فإنه يعلمكم كل شىء ، ويذكر بكل ما قلته لكم » [يو ١٤ : ٢٦]

but the counsellor, the holy spirit , when the father will send in my name , will teach you all things and will remind you of every thing i have said to you

وفى القرآن الكريم : ﴿ ويسألونك عن الروح قل : الروح من أمر ربى وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾

والروح المسئول عنه هو « بيركليت الروح القدس » الذى هو محمد رسول الله ﷺ . يسألونك لماذا يأتى وشريعة موسى معنا ؟ وأجاب : بأن هذا أمر الله ، ولا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه . وأنتم أيها السائلون من أهل الكتاب ﴿ ما أوتيتم ﴾ من عيسى عليه السلام ﴿ من العلم . إلا قليلاً ﴾ لقوله فى الإنجيل : إن الروح يعلمكم كل شيء . وهذا يدل على أن عيسى علم قليلاً من العلم . ولا يمكن أن يكون قوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ خطاب لجميع بنى آدم أو للمسلمين وحدهم . وذلك لأن محمداً ﷺ علم كل شيء . فقد قال تعالى : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شيء ﴾ وقال : ﴿ ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾

المحاولة العاشرة :

محاولة استفانوس لجعل عيسى هو النبى المماثل لموسى :

وضع كاتب سفر أعمال الرسل على لسان إستفانوس وهو يحاج اليهود : « هذا هو موسى الذى قال لبنى إسرائيل : نبياً مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم . له تسمعون » ثم قال لهم : « يا قساة الرقاب ، وغير المختونين بالقلوب والآذان . أنتم دائماً تقاومون الروح القدس . كما كان آباؤكم كذلك أنتم أى الأنبياء لم يضطهده آباؤكم ، وقد قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجيء البارّ الذى أنتم الآن صرتم مسلّميه وقاتليه ؟» [أع ٧]

محاولات بولس لجعل عيسى هو المسيح الرئيس :

وما فعله بطرس واستفانوس وغيرهما ، فعله بولس . وهذا واضح فى الرسالة إلى العبرانيين . فإنه قد اقتبس « أنت ابنى . أنا اليوم ولدتك » وغيرها .
قال مانصه : « الله بعدما كلَّم الآباء بالأنبياء قديماً ، بأنواع وطرق كثيرة كلمنا فى هذه الأيام الأخيرة ، فى ابنه ، الذى جعله وارثاً لكل شيء ، الذى به أيضاً عمل العالمين . الذى وهو بهاء مجده ، ورسم جوهره وحاملٌ كلَّ الأشياء بكلمة قدرته ، بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا ؛ جلس فى يمين العظمة ، فى الأعالى ، صائراً أعظم من الملائكة بمقدار ما ورث اسماً أفضل منهم .
لأنه لمن من الملائكة قال قط : « أنت ابنى . أنا اليوم ولدتك » وأيضاً : « أنا أكون له أباً ، وهو يكون لى ابناً » وأيضاً : « متى أدخل البِكر إلى العالم ، يقول : ولتسجد له كل ملائكة الله » وعن الملائكة يقول : « الصانع ملائكته رياحاً ، وخدامه لهيب نار » وأما عن الابن : « كرسيك يا ألله إلى دهر الدهور . قضيب

استقامة قضيب ملكك . أحببت البرَّ ، وأبغضت الإثم . من أجل ذلك مسحك الله إلهك بزيت الابتهاج أكثر من شركائك » و« أنت يارب فى البدء أسست الأرض والسموات هى عمل يديك . هى تبيد ولكن أنت تبقى وكلها كثوب تبلى ، وكرداء تطويها ؛ فتتغير .ولكن أنت أنت ، وسنوك لن تفنى » ثم لمن من الملائكة قال قط :

« اجلس عن يمينى . حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك » ؟ أليس جميعهم أرواحاً خادمة مرسَلةً للخدمة ؛ لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص » [عب ١ : ١ - ١٤]

الملاحظات :

١ - ما المراد بابنه ؟

إنه هو المسيح المنتظر

٢ - ماهو الدليل على أن الله سيرسل المسيح المنتظر إلى العالم ؟

الدليل هو : أ - أنت ابنى ب - كرسيك يا ألله ج - اجلس عن يمينى ... الخ

٣ - هل هذه الأدلة تدل على عيسى . أم تدل على محمد رسول الله ؟

ههنا تكون المناقشة بين المسلمين واليهود والنصارى .

وموضوعها : كتب الاقتباسات

ابن الله هو المسيح المنتظر .

وإذْ أراد النصارى قفل باب النبوة فى وجه محمد رسول الله الآتى من الأُمِّيين بنى إسماعيل نوراً وهدى للناس . كتبوا سفر أعمال الرسل ، لتطبيق كل نبوءات التوراة التى هى كلها لمحمد ﷺ على عيسى عليه السلام ، ولتطبيق كل نبوءة قالها يحيى عليه السلام والمسيح عيسى بن مريم نفسه عن نبى الإسلام ﷺ على عيسى عليه السلام فى مجيئه الثانى ، آخر الزمان .

ثم نظروا فى الأناجيل الأربعة المقدسة عندهم ، ووضعوا فيها عبارات تدل على أن عيسى : ابن الله . الذى هو المسيا . أى المسيح الرئيس . ثم أشاعوا فى العالم : أن لاهوت المسيح واضح فى الأناجيل لمن يرى . والحقيقة : أنه لا تُوجد فى الأناجيل أى عبارة تدل على لاهوت المسيح ولا بُنوته لله بُنُوَّة طبيعية . وكل مافيها عن « ابن الله » يعنون به : أنه المسيح الرئيس . وقد فات هذا الأمر على بعض المؤلفين الناقلين عن غيرهم بلا تثبت ، مع أنهم لو قرأوا بأنفسهم نصوص الكتب لأدركوا مثل ما أدركنا . .

انظر إلى بدء إنجيل مَرْقس . ونصه : « بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله »

ما المراد بهذه العبارة ؟ المراد بها عندهم : أنه هو المسيح الرئيس .يريدون أن يخدعوا العالم بأن يسوع هو المسيح المنبأ عنه فى المزمور الثانى بلقب « ابن الله » ولذلك كتبوا بعدها مباشرة : « كما هو مكتوب فى الأنبياء » ثم ذكروا نصوصاً من أسفار الأنبياء ، وأوَّلوها تأويلاً سيئاً ، لتدل على أن عيسى هو « المسيح » لا « مسيح »

وفى إنجيل يوحنا عقب ذكر المائدة السماوية ، حشر محرفو الإنجيل هذه العبارة : « ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح . ابن الله الحى » [يو ٦ : ٦٩] يريدون أن يقولوا : إن بطرس ورفاقه عرفوا : أن عيسى هو « المسيح الرئيس » الملقب من داود بلقب « ابن الله »

وما عدا هذا . فكل الأناجيل توضح أن عيسى رسول الله :

١ - فى إنجيل لوقا . يقول المسيح : « لا يقدر خادم أن يخدم سيدين ؛ لأنه إما أن يُبغض الواحد ، ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون أن تخدموا الله والمال » [لو ١٦ : ١٣]

٢ - فى إنجيل يوحنا : « فقالوا له : مَن أنت ؟ فقال [لهم] يسوع : أنا من البدء ما أكلمكم أيضاً به . إن لى أشياء كثيرة أتكلم وأحكم بها من نحوكم . لكن الذى أرسلنى هو حق . وأنا ما سمعته منه . فهذا أقوله للعالم » [يو ٨ : ٢٥ - ٢٦]

٣ - وفى إنجيل مَرْقس : « فقال لهم يسوع : ليس نبى بلا كرامة إلَّا فى وطنه وبين أقربائه وفى بيته » [مر ٦ : ٤]

٤ - وفى إنجيل متى : يقول عيسى عليه السلام : « من يقبلكم يقبلنى ، ومن يقبلنى ، يقبل الذى أرسلنى » [متى ١٠ : ٤٠]

المبحث الثانى
فى
نقد بُولُوس لعيسى عليه السلام

لا يتأتَّى لنبى أن يُلزم الناس بأحكام الله ، إلا إذا بيَّن لهم أوَّلاً : أن الله سيجازيهم على أعمالهم فى الدنيا والآخرة . ومجازاته لهم على أعمالهم ، تدل ببدائه العقول : على أن الله تعالى قد خلقهم أحراراً ، ولم يلزمهم بأعمالهم قسراً عنهم . حتى لا يأتى العصاة فى يوم الدين ويحتجوا بأن عصيانهم لله ، كان بسبب أنه كتبه عليهم فى اللوح المحفوظ من قبل أن يُوجدهم على ظهر الأرض . وفى هذا المعنى يقول تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل . أنْ تقولوا : ماجاءنا من بشير ولا نذير . فقد جاءكم بشير ونذير . والله على كل شىء قدير** ﴾ [المائدة ١٩]

وفى التوراة نفس المعنى . ففى الأصحاح الثلاثين من سفر التثنية : « إن هذه الوصية التى أُوصيك بها اليوم ليست عسرة عليك ، ولا بعيدة منك ليست هىَ فى السماء حتى تقول : من يصعد لأجلنا إلى السماء ويأخذها لنا ويُسمعنا إيَّاها ؛ لنعمل بها . ولا هى فى عبر البحر ، حتى تقول : من يعبر لأجلنا البحر ، ويأخذها لنا ، ويُسمعنا إياها ؛ لنعمل بها . بل الكلمة قريبة منك جداً فى فمك وفى قلبك ؛ لتعمل بها » [تثنية ٣٠ : ١١ — ١٤]

وقد استدل عيسى عليه السلام بنص سفر التثنية هذا على أن الله تعالى قد خلق الإنسان حراً فقال : « يزعمُ الفرِّيسيُّون : أن كل شىء قُدِّر على طريقة ، لا يُمكن معها لمن كان مختاراً ، أن يصير منبوذاً . ومن كان منبوذاً لا يتسنى له بأية وسيلة كانت أن يصير مختاراً ، وأنه كما أن الله قدَّر أن يكون عمل الصلاح هو الصراط ، الذى يسير فيه المختارون إلى الخلاص ؛ هكذا قدَّر أن تكون الخطيئة هى الطريق الذى يسير فيه المنبوذون إلى الهلاك

لُعِن اللسان الذى نطق بهذا ، واليد التى سطَّرته ؛ لأن هذا إنما هو اعتقاد الشيطان.

أما كون الإنسان حُرًّا . فواضح من كتاب موسى ؛ لأن إلهنا عندما أعطى

الشريعة على جبل سيناء . قال هكذا : « ليست وصيتي في السماء ؛ لكي تتخذ لك عذراً . قائلاً : مَنْ يذهب ليُحضر لنا وصية الله ؟ ... الخ »

هذا كلام عيسى عليه السلام . وهو أنه صرح بمذهب الاختيار . واستدل عليه من التوراة ذاتها .

نقد بولس لعيسى عليه السلام :

زعم بولس :

١ – أن الإيمان في مسمى الشريعة هو الاعتقاد فقط . مع أنه عند الراسخين في العلم مكون من أ – الاعتقاد ب – والعمل . فألغى بولس الأعمال . وماهي الأعمال التي ألغاها ؟ هي الأعمال بأحكام التوراة .

٢ – وفسر الاعتقاد بأنه هو الإيمان بالمسيح رباً مصلوباً عن خطايا العالم .

٣ – وقال : هذا ما قدره الله على بني آدم من البدء .

٤ – ولجأ إلى التوراة ليستدل منها على قوله . فأخذ النص الذي استدل به عيسى نفسه على مذهب الاختيار . وأوّله تأويلاً سيئاً ؛ ليدل على الجبر .

٥ – ونادى بولس بجعل الديانة عامة . ليس بالخبر الذي هو مجيء محمد ، بل بكلامه هو .

قال بولس في الأصحاح العاشر من رسالته إلى أهل رُومِيَة : « أيها الأخوة . إن مسرة قلبي وطلبتي إلى الله ؛ لأجل إسرائيل . هي للخلاص ؛ لأني أشهد : أن لهم غيْرة لله ، ولكن ليس حسب المعرفة ، لأنهم إذ كانوا يجهلون بِرَّ الله ، ويطلبون : أنْ يُثبتوا برَّ أنفسهم ، لم يُخْضَعوا لبر الله . لأن غاية الناموس : هي المسيح للبرِّ . لكل من يؤمن . **لأن موسى يكتبُ في** البر الذي بالناموس : « إن الإنسان الذي يفعلها ، سيحيا بها » وأما البر الذي بالإيمان فيقول هكذا : « لا تقل في قلبك : مَنْ يصعد إلى السماء » أي ليُحدر المسيح « أو من يهبط إلى الهاوية » أي ليُصعد المسيح من الأموات . لكن ماذا يقول ؟ « الكلمة قريبة منك ، في فمك وفي قلبك » أي كلمة الإيمان التي نَكْرِزُ بها لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع ، وآمنت بقلبك : أن الله أقامه من الأموات ؛ خَلَصْتَ » [رو ١٠ : ١ –]

هل يصح هذا التفسير من بولس لعبارة التوراة ؟

لا يصح . ولماذا ؟

أولاً : لأن المسيح لم يُقتل ولم يصلب . فقد ظهر بعد الحادثة التي جرت ليهوذا الاسخريوطي مدة أربعين يوماً . وأكل وشرب . والمقتول لا يظهر ولا يأكل ولا يشرب .

ثانياً : أن الأناجيل الأربعة روت عن عيسى عليه السلام تصريحه بمذهب الاختيار . ففى إنجيل متى : « فكل من يسمع أقوالى هذه ، ويعمل بها ؛ أُشبهه برجل عاقل ، بنى بيته على الصخر . فنزل المطر وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح ، ووقعت على ذلك البيت ؛ فلم يسقط ؛ لأنه كان مؤسساً على الصخر . وكل من يسمع أقوالى هذه ، ولا يعمل بها ؛ يُشبه برجل جاهل بنى بيته على الرمل ؛ فنزل المطر ، وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح ، وصدمت ذلك البيت ؛ فسقط . وكان سقوطه عظيماً » [متى ٧ : ٢٤ - ٢٧]

ثالثاً : ردَّ يعقوب فى رسالته على بولُس بقوله : « كما أن الجسد بدون روح ميت ؛ هكذا الإيمان أيضاً بدون أعمال ميت » [يعقوب ٢ : ٢٦]

المقارنات

١ - مذهب المعتزلة مساوى للمأثور عن عيسى عليه السلام فى الإيمان والأعمال ، وفى أن الله قد خلق الإنسان حراً .

٢ - مذهب الجَبْر مساوى للمأثور عن اليهود الفَرِّيسيِّين ، والنصارى .

٣ - الإيمان والأعمال معاً :

يقول المعتزلة : لابد منهما للمرء فى دخول الجنة . والإيمان بدون أعمال لا يُدخل الجنة . ويقول خصومهم إن الإيمان بالله يكفى فى دخول الجنة . والأعمال ليست شرط صحة فى دخول الجنة . وإنما هى شرط كمال فى التفاضل فيها . أى أنه لو دخل رجلان الجنة بالإيمان وأحدهما عنده عمل صالح . فالعمل مع الإيمان يجعل صاحبه فى الدرجة الأولى والإيمان بدون أعمال يجعل صاحبه فى الدرجة الثانية . هذا هو تقرير مذهب خصومهم بالتمام والكمال

وقد رد عليهم المعتزلة بدليلين :

الدليل الاول : قول الله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا ؟ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيراً ﴾ [النساء ١٢٢ - ١٢٤]

والدليل الثانى : إنكم معشر الخصوم قد ألغيتم الأعمال من مُسَمى الإيمان فى الشرع . بحديث آحاد هو : « لن يدخل أحدكم عمله الجنة » وحديث الآحاد لا يُحتج

به فى العقائد.وقلتم : إن دخول الجنة بمشيئة الله وحده ، الذى لا يُسأل عما يفعل . فلماذا صرحتم بأن الأعمال شرط صحة فى زيادة الدرجات . مع أن الكل بفضل الله ورحمته ، وهو لا يُسأل عما يفعل ؟

وقبل هذا النص . وهو « أيها الأخوة إن مسرة قلبى ، وطلبتى إلى الله ، لأجل إسرائيل ... الخ » ذكر بولس نصَّ التوراة الذى استدل به عيسى عليه السلام على أن الله قد خلق الإنسان حراً ، وأوَّله تأويلاً سيئاً ، يدلُّ على مذهب الجبر ونص التوراة هو : قول الله لموسى عليه السلام : « إنى أرحم من أرحم ، وأتراءف على من أتراءف » [خروج ٣٣ : ١٩] وتأويل بولس يتضح من كلامه وهو : « فماذا نقول ؟ ألعلَّ عند الله ظلماً ؟ حاشا ؛ لأنه يقول لموسى : إنى أرحم من أرحم ، وأتراءف على من أتراءف . فإذاً ليس لمن يشاءُ ، ولا لمن يسعي ، بل لله الذى يرحَمُ . لأنه يقول الكتاب لفرعون . إنى لهذا بعينه أقمتك ؛ لكى أظهر فيك قوتى ، ولكى يُنادى باسمى فى كل الأرض . فإذاً هو يرحم من يشاء ، ويُقسى من يشاء . فتقول لى : لماذا يلوم بعد . لأنْ منْ يُقاوم مشيئته ؟ بل من أنت أيها الإنسان ، الذى تجاوب الله ؟ ألعلَّ الجِبْلةَ تقول لجابلها : لماذا صنعتنى هكذا ؟ أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة ، إناء للكرامة ، وآخر للهوان . فماذا إن كان الله . وهو يريدُ أن يُظهر غضبه ويبين قوته ؛ احتمل بأناةٍ كثيرة ، آنية غضبٍ ، مهيأةٌ للهلاك ؟ ولكى يبين غنى مجده على آنية رحمةٍ . قد سبق فأعدها للمجد . التى أيضاً دعانا نحن إياها . ليس من اليهود فقط ، بل من الأمم أيضاً . كما يقول فى هُوشِع أيضاً : سأدعو الذى ليس شعبى : شعبى ، والتى ليست محبوبة : محبوبة . ويكون فى الموضع الذى قيل لهم فيه : لستم شعبى ؛ أنه هناك يُدعون أبناء الله الحى ... الخ » [رومية ٩ : ١٤ - ٢٦]

يُريد أن يقول : كما أن صانع الأباريق والكؤوس ؛ حرٌّ فى تشكيل الطين والطين لا يعترض . فلا تقول القطعة التى عُملت إناء ، يشربُ منه السوقة : لماذا لا تجعلنى إناء يشربُ منه الملوك كذلك - ولله المثل الأعلى - يكون الله حراً فى ملكه ، ولا يُسأل عما يفعل ويريد أن يقول : إن ملكوت الله ، لن يكون من الآن لليهود فقط ، كما ادَّعوا من سبى بابل . وإنما سيكون من الآن أى من ظهور يسوع ، لليهود وللأمم . كما تنبأ النبى هوشع . ويقال لبولس : إن المثال مع الفارق . فالطين جماد لا عقل له . والإنسان حيوان عاقل . وقد سخر الله كل شيء للإنسان ، ولم يسخر الإنسان للطين . والله أعلم .

تم الكتاب . ولله الحمد

وكان البدء فى تأليفه فى مدينة الكويت فى غرة المحرم سنة ألف وأربعمائة وأربعة من الهجرة . وضاعت منه أصول ، ووضعنا بدلها عوضاً عنها فى معناها .

الفهرس

رقم الإيداع فى دار الكتب المصرية
١٩٩٢/١٦٧٦
I.S.B.N
977-217-013-2



